دراسة للأحاديث الواردة في الطاعون

محمد زاهد

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة والسلام على خير خلقه سيدنا ومولانا محمد وآله و صحبه أجمعين، وبعد:

لقد كان الطاعون في سالف الزمان من الأمراض المعدية التي كانت تتفشى بسرعة شديدة، وتكتسح مساحة كبيرة من المناطق في أيام وأسابيع، وكان هذا المرض يعتبر خطراً كبيراً على الصحة العامة والحياة البشرية، وكان الجهل عن أسباب إصابته وفشوّه سائدا حتى وفي البلاد و الأمم المتحضرة. في هذا الجوِّ ذكرَ النبي الأمي صلى الله عليه وسلم هذا المرض في كثير من أحاديثه الشريفة، وهي كما تنعكس فيها الرؤية الإسلامية إلى بعض القضايا الطبية، كذلك تحتوي على نماذج من الإعجاز العلمي، من هنا كانت الحاجة داعية إلى دراسة الأحاديث الشريفة الواردة في الطاعون، وفيما يلي محاولة متواضعة في هذا الصدد.

الطاعون لغة:

"الطاعون " بوزن "فاعول" مشتق من "طَعَن"، "يطعَن" و "يطعُن". وتؤدي مادة: "ط ع ن " معنى الضرب بالرمح والافتراء باللسان فيقال مثلا: طعَن في نسبه، وتؤدي كذلك معنى الظهور والطلوع، ويطلق الطاعون على الوباء أى المرض المتفشي في بلد أو بقعة من الأرض، أيّ وباء كان، وهذا الإطلاق مجاز، والصحيح أنه اسم لمرض وبائيّ خاص سنعرِّف به فيما بعد، فكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعونا، وإذا استُعمِلت هذه المادة للمرض جاءت على صيغة المجهول، فيقال: "طُعِن فلان" و "يُطعَنُ" فهو "مطعون"و "طعين"(١).

١- يراجع: ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، دار المعرفة، بيروت، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، ١٠/ ١٨٠، وابن منظور، **لسان العرب**، مادة "طعن"، ومحمد مرتضى الزبيدي، **تاج العروس**، مادة "طعن".

و إطلاق الطاعون على الوباء مطلقا ليس خاصا باللغة العربية بل تذكر المراجع الغربية أن كلمة "plague" كانت تطلق أيضا على جميع الأوبئة الخطيرة(٢).

الطاعون في الطب:

يتلخص ما قاله الأطباء القدماء في التعريف بالطاعون فيما ذكره النووي في **تهذيب الأسماء واللغات**(٣):

> هو بثر وورم مؤلم جداً يخرج مع لهب ويسوَدُّ ما حواليه أو يخضر أو يحمر حمرة بنفسجية كدرة ويحصل معه خفقان القلب والقيء ويخرج في المراق والآباط غالبا والأيدي والأصابع وسائر الجسد.

أما الطب الحديث فعرَّف الطاعونَ بأنه مرض مُعْدٍ يتسبب عن بكتيريا مسمى بـ: "يرسينيا بستس" (yersinia pestis) والذي يصيبه أصلا هي الحيوانات القارضة(٤)، أهمها الفئران وتنتقل منها بواسطة البراغيث إلى الإنسان.

لقد قسم الطب الحديث الطاعون إلى ثلاثة أنواع:

١- الطاعون الدملي أو الغددي (bubonic plague): وفي هذا النوع من الطاعون ينتقل ميكروب الطاعون من موضع عضِّ البرغوث إلى الغدد السطحية كالموجودة في خن الورك أو تحت الإبط أو في العنق. وتتضخم هذه الغدد وتتورم وتمتلئ صديدا، يصاب المريض معها بالحمّى والصداع والغثيان والقيء، وهذا النوع من الطاعون أكثر أنواعه انتشارا، وذكرت **دائرة المعارف البريطانية** أنه يكوِّن ثلاثة أرباع صور الإصابة بالطاعون(٥).

٢- الطاعون الرئوي (pneumonic plague): وفيه تتسَرَّب الميكروبات إلى الرئتين، وهذا النوع أشدّ فتكا من النوع الأوَّل(٦).

٢- يراجع: *Encyclopedia Encarta, article* : "plague"

٣- النووي في: **تهذيب الأسماء واللغات**، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ٣/ ١٧٧.

٤- "الحيوانات القارضة" أو "القوارض" نوع من الحيوانات الثديية ذات أسنان مكيفة القضم والمضغ وتنمو الأسنان القواطع الكبيرة طوال الحياة، ومن أشهر أنواعها الفئران والجرذان. محمد شفيق غربال، **الموسوعة العربية الميسّرة**، دار إحياء التراث العربي.

٥- محمد شفيق غربال: **الموسوعة العربية الميسّرة**:مادة "طاعون" و *Encyclopedia Britannica,* article "plague" (CD-ROM Edition)

٦- نفس المرجعين.

٣- الطاعون التسممي (septicemic plague): وفي هذا النوع ينتقل "يرسينيا" من موضع عضِّ البرغوث إلى الدم، ويتسمم الدم، ويشتد هذا التسمم إلى درجة أن المريض يموت قبل ظهور الغدد أو علامات أخرى[٧].

الطاعون عبر التاريخ:

يرجع تاريخ معرفة الإنسان بالطاعون إلى ثلاثة آلاف سنة على الأقل[٨]. وتذكر بعض المراجع تفشي هذا الوباء في الصين سنة ٢٢٤ قبل الميلاد[٩]. كما تفشى في القسطنطينية (عاصمة الدولة البيزنطينية آنذاك) في سنة ٤٥١م وبقي إلى ربيع السنة القادمة وراح ضحيَّته حوالي مأتي ألف شخص، أو أربعون في المائة من سكان مدينة القسطنطينية، وسُمِّي هذا الطاعون بـ: "Justinian" باسم الإمبراطور البيزنطيني وقتئذٍ[١٠].

ومن الطواعين المعروفة في التاريخ الإسلامي طاعون "عمواس" الذي ظهر في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة١٧هـ أو ١٨هـ، ونُسب إلى قرية بين القدس و الرملة تسمى "عمواس" لأنها أول ما نجم هذا الوباء فيها، ثم انتشر منها في بلاد الشام، توفي فيه حوالى خمسة وعشرين ألفا، منهم أجلة الصحابة؛ أمثال معاذ بن جبل وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم[١١].

ومن الطواعين المعروفة في التاريخ الأوروبي ما ظهر من سنة ١٣٤٧م إلى سنة ١٣٥١م وأُطلِق عليه "الموت الأسود" واكتسح أوروبا و آسيا، وكان عدد ضحاياه ـ على ماتذكره بعض الدراسات ـ خمسة وعشرين مليونا وهم ربُع سكّان أوروبا آنذاك[١٢]. وتذكر **دائرة المعارف البريطانية** أن تخمين ضحاياه بثلث سكّان أوروبا يبدو صحيحا.

وقد ظهر الطاعون في الهند في عهد "جهانگير" أحد أباطرة المغول سنة ١٦١٢م، وكان بدؤه من مدينة "آگره" وانتشر منها في وسط الهند، ومن الجدير بالذكر أن الإمبراطور "جهانگير" كتب في سيرته الذاتية "توزك" أنه رأى فأرة مصابة بالطاعون كما رأى قطة اختطفت هذه الفأرة لكنها لم تستسغها أكلا،

٧- نفس المرجعين.

٨- *Encyclopedia Encarta,* article, "plague"

٩- نفس المرجع.

١٠- Christopher King : "Chasing the Plague Through the Centuries" an article included in *Encyclopedia Encarta*

١١- ابن كثير، **البداية والنهاية**، المكتبة القدوسية، لاهور، ط ١، ١٤٠٤هـ، ج ٧، ص ٧٨ و ٩١.

١٢- www.alasad.net

فتركتها، وماتت الفأرة فورا،وأصيبت القطة بالحمى واسوَدَّ لسانه، وأعطوها دواء يسمى "ترياق فاروقي" لكنها لم تبرأ وماتت بعد يومين أوثلاثة(١٣). وآخر وباء للطاعون ظهر بالهند كان سنة ١٩٩٤م وابتدأ من مدينة سورت.

سبب الإصابة بالطاعون:

من الأمور التي كادت البشرية تتفق عليها عبر الأجيال أن الطاعون مرض متعدٍ، فكانوا يتوقون قرب المريض منذ زمن قديم، فيذكر بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أنه تظاهر بأنه مطعون، فتركوه مخافة الطاعون، وقد رُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنه وغيره من السلف(١٤).

وينقل Christopher King مدير مجلة *Science Watch* الصادرة من إحدى المؤسسات العلمية بـ: "فلادلفيا" عن شاهد عيان لأحد الطواعين في القرن الثامن الميلادي في "سسلى": وسرعان ما كان الناس يَكرهون بعضهم بعضا، حتى لو أن ابنا أصيب بهذا المرض لم يقرب منه أبوه وقريب منه مانقله "كرستوفر" عن الطاعون المعروف بالموت الأسود بأوربا(١٥).

لكن كيف يتم الإصابة بالمرض وكيف ينتشر الوباء، وكيف تنتقل عدواه من بعض لآخر؟ هذا ماكان الجهل عنه سائدا إلى ما قبيل نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، فبعضهم أرجعوا سببه إلى الكوكبين: المرّيخ والمشتري، وبعضهم إلى الزلازل والكوارث الطبيعية الأخرى، ومعظم الأطباء كانوا يرون ذلك من فساد الهواء، لكن كيف تفسد الهواء وكيف ينتشر هذا المرض أحيانا مع صفاء الهواء؟ هذا لم يجب عليه أحد.

وظهر تقدّم باهر في معرفة الإنسان بسبب الطاعون في التسعينات من القرن التاسع عشر الميلادي حين اكتشف عالم سويسري "إسكندريرسين" (Alexander Yaresin) أن هناك ميكروبا هو المسئول عن هذا المرض الرهيب، فوجد "يرسين" هذا حين سافر إلى الهند والصين أن المادة الموجودة في غدد الطاعون يشتمل على باسيل أو ميكروب في جميع المرضى، وقد يوجد في دم المريض أيضاً، وقد تزامن اكتشافُ يرسين لهذا الميكروب أو البكتيريا اكتشافَ عالم يابانيّ "كيتاساتو" (Shibasaburo Kitasato) نفس

١٣- خالد محمود غزنوي، ***سائنس كى بياريان اور علاج نبوي صلى الله عليه وسلم***، الفيصل، لاهور، ط ٧، ٢٠٠٢م، ص ٣٥٣.

١٤- يراجع مثلاً **تفسير الطبري**، دارالفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ، ٢٣/ ٧٠.

١٥- *Encyclopedia Encarta,* article" Chasing the Plague.."

البكتيريا، لكن هذا العالم الياباني لم يحظَ من القبول والشهرة ما حظيَ به منهما "يرسين" ـ ولعل ذلك يرجع إلى كون هذا أوروبيا وذاك آسويا! ـ فسُمِّيَ هذا الميكروب أو البكتيريا بـ: "يرسينيا بستس".

لكن كيف ينتشر هذا الميكروب وكيف يصيب الإنسان، هذا لم يزل سراً حتى بعد دراسة "يرسين" و "كيتاساتو" ولم يكشف الستارَ عنه إلا عالم فرنسي "سيمند" (Paul, Louis Simond) بعد اكتشاف يرسين بأربعة أعوام، فقد كان هذا العالم الفرنسي مرتابا في النظريات السائدة في كيفية انتقال "يرسينيا" إلى الإنسان، بما فيها النظرية القائلة إن هذا البكتيريا ينتقل إليه بواسطة استنشاق الهواء والغبار، ولاحَظَ خلال دراسته لمرضى الطاعون خلال الوباء المتفشي في الهند عام ١٨٩٨م أن هناك بثرة صغيرة في بدن المريض مليئة بباسيل الطاعون كما لاحظ أن هذه البثور في الحقيقة علامات لقرض بعض الحشرات الطائرة، ثم انتهت به الدراسة إلى أن المسئول الحقيقي عن إصابة هذا المرض الإنسان هي البراغيث، وهذا البكتيريا يصيب في الحقيقة الحيوانات القارضة خاصة الفئران وله دورة معروفة:

{الحيوانات القارضة ـ البراغيث ـ الحيوانات القارضة}

أى إنه يصيب القوارض وينتقل منها إلى البراغيث ومن البراغيث إلى القوارض،وقد يتدخل بعض الحيوانات الثدية الأخرى بما فيها الإنسان في هذه الدورة، ويصاب بهذا البكتيريا[١٦]، ومن أسباب هذا التدخل وانتقال البراغيث الحاملة "يرسينيا" إلى الإنسان أو الحيوانات الثدية الأخرى كثرة موت الفئران لقتلها أو بالطاعون أو بسبب آخر، فالبراغيث الموجودة على جثث الفئران الميّتة تبحث عن مضيف آخر من الفئران، وعند فشلها في البحث عن هذا المضيف تتجه نحو الإنسان أو غيره من الثديات، فيقع فريستها، من هنا حذر بعض الباحثين الجدد عن قتل الفئران المصابة بهذا المرض، فجاء في إحدى الدراسات المنشورة بموقع "بي بي سي" بالإنترنت:

> "ووجد الباحثون أن قتل الفئران بعد اكتشاف حالات الإصابة بالطاعون تضطر البراغيث المتطفّلة على الفئران إلى البحث عن مضيف آخر، وفي الغالب ينتهي الأمر بها إلى التطفل على الإنسان"[١٧].

هذا بالنسبة للطاعون الغددي، وهو أكثر أنواع الطاعون وجوداً، فإنه لا علاقة لنقل عدواه من شخص إلى آخر بالهواء أو نظام التنفس، حتى لقد ذكر بعضهم أن البرغوث لاينقل المرض من إنسان إلى

١٦- نفس المرجع و **دائرة المعارف البريطانية**، مادة : plague

١٧- www.bbcarbic.com

آخر، وإنما ينقل المرض من الفأر إلى الإنسان[١٨]، والمراد في معظم الأحاديث النبوية صلى الله عليه وسلم هو هذا النوع؛ لأنه عليه الصلاة والسلام عرَّفه بأنه "غُدَّة كغدة البعير"[١٩]، أما النوعان الآخران من الطاعون فقد ينتقل فيهما المرض من المصاب إلى السليم من غير واسطة البراغيث، فيمكن أن ينتقل مع استنشاق الهواء المشتمل على البكتيريا الخارج نتيجةَ تنفس الإنسان، أو بواسطة الرطوبات الخارجة من الحلق والفم أو مس الجلد أو الشيء الموجود فيه البكتيريا، كما أنه ينتقل بواسطة المطعومات والمشروبات[٢٠].

أوجه الإعجازالعلمي في الأحاديث الواردة في الطاعون:

وقد أزاحت الاكتشافات العلمية الحديثة الستار عن بعض ما انطوت عليه الأحاديث النبوية من الإعجاز، فقد توصل العلم الحديث في هذا العصر إلى بعض ما بيَّنه النبي الأمي صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرنا، ونشير هنا إلى شيء منها قبل أن ننتقل إلى ما تضمنته هذه الأحاديث من الأحكام:

١- **الطاعون عذاب عذّب الله به بعض الأمم:**

لقد جاء في غير حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الطاعون عذاب عُذِّب به بعض الأمم قبلنا، فروى البخاري وغيره عن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الوجع (أي الطاعون) فقال رجز أو عذاب عُذِّب به بعض الأمم ثم بقي منه بقية فيذهب المرة ويأتي الأخرى فمن سمع به بأرض فلا يقدمن عليه ومن كان بأرض وقع بها فلا يخرج فراراً منه[٢١]، هكذا جاء في معظم الروايات عذاب بعض الأمم بدون تعيين أمة دون أخرى، لكن جاء في بعض الروايات ذكر بني إسرائيل خاصة وهذه الطرق أيضاً غير قليلة، ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع: الأول ماورد فيه ذكر بني إسرائيل مع بعض الأمم

١٨- **الموسوعة العربية الميسرة**، مادة : طاعون.

١٩- أخرجه أحمد في **المسند** عن عائشة رضي الله عنها، مؤسسة قرطبة، مصر، برقم:٢٥١٦١.

٢٠- *Encarta*: plague

٢١- **صحيح البخاري**، دار ابن كثير، بيروت، ط ٣، ١٩٨٧م، رقم الحديث: ٦٥٧٢ كتاب الحيل، باب ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون، ويراجع أيضاً: **صحيح مسلم**، تحقيق: فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، رقم: ١٢١٧ وما بعده، **تفسير الطبري**، ١/ ٣٠٥، النسائي، **السنن الكبرى**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩١م، ٤/ ٣٦٢ برقم: ٧٥٢٣ وما بعده، الطبراني، **المعجم الكبير**، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط ٢، ١٤٠٤هـ، رقم: ٢٧٦.

بالترديد بكلمة "أو" كما رواه البخاري[٢٢] عن عبد العزيز بن عبد الله قال حدثني مالك عن محمد بن المنكدر وعن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد ماذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطاعون؟ فقال أسامة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطاعون رجس أرسل على طائفة من بني إسرائيل أو على من كان قبلكم. ورواه مسلم[٢٣] عن محمد بن عبد الله بن نمير حدثنا أبي حدثنا سفيان عن محمد بن المنكدر عن عامر بن سعد عن أسامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن هذا الطاعون رجز سلط على من كان قبلكم أو على بني إسرائيل، ورواه أيضاً[٢٤] عن محمد بن حاتم حدثنا محمد بن بكر أخبرنا بن جريج أخبرني عمرو بن دينار أن عامر بن سعد أخبره أن رجلا سأل سعد بن أبي وقاص إلخ، ورواه أيضاً ابن جرير الطبري في تفسيره[٢٥] عن أبي شيبة بن أبي بكر بن أبي شيبة قال حدثنا عمر بن حفص قال حدثنا أبي عن الشيباني عن رباح بن عبيدة عند عامر بن سعد به، والنوع الثاني من هذه الطرق ما جاء فيه ذكر بني إسرائيل فقط، وهو ما رواه النسائي[٢٦] والترمذي[٢٧] عن قتيبة بن سعيد قال ثنا حماد عن عمرو عن عامر بن سعد عن أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الطاعون فقال: بقية رجز وعذاب أرسل على طائفة من بني إسرائيل، والنوع الثالث ما جاء فيه ذكر بني إسرائيل مع بعض الأمم بكلمة: "و" كما رواه النسائي[٢٨] عن الحارث بن مسكين قراءة عليه وأنا أسمع عن بن القاسم قال أنا مالك عن أبي النضر ومحمد بن المنكدر عن عامر بن سعد عن أبيه سمعه يسأل أسامة بن زيد ماذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطاعون قال أسامة بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل وعلى من كان قبلكم. ويستفاد من مجموع ما ذكر وغيرها من

٢٢- **صحيح البخاري**، رقم: ٣٤٧٣ كتاب أحاديث الأنبياء، باب بعد حديث الغار.

٢٣- **صحيح مسلم**، برقم: ٢٢١٧.

٢٤- المرجع السابق، برقم ٢٢١٨.

٢٥- **تفسير الطبري**، ١/ ٣٠٥.

٢٦- النسائي، **السنن الكبرى** برقم: ٧٥٢٤.

٢٧- **سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث، بيروت، كتاب الجنائز، باب ما جاء في كراهية الفرار من الطاعون، رقم : ١٠٦٥.

٢٨- النسائي، **السنن الكبرى** برقم: ٧٥٢٥.

الروايات أن التعذيب بالطاعون وقع لبني إسرائيل كما وقع لغيرها من الأمم، وقد سرد الحافظ[٢٩] أمثلة لتعذيب طوائف من بني إسرائيل بالطاعون، وقد ذكر شيء من ذلك في الكتاب المقدس؛ فجاء ـ مثلا ـ في الإصحاح الحادي عشر من سفر "العدد" من العهد القديم:

"وإذا كان اللحم بعد بين أسنانهم قبل أن ينقطع، حَمِيَ غضب الرب على الشعب وضرب الرب الشعب ضربة عظيمة جدا"

هنا لم يُفَسر بماذا وقع عليهم هذا الغضب، لكن جاءت نفس هذه الآية في الترجمة الإنجليزية المطبوعة بـ: "BURNS & OATES LTD LODON" سنة ١٩٦٠م بلفظ:

"They had meat between their teeth yet ….. suddenly a grievous plague fell on them"

وجاء في الإصحاح الرابع والأربعين من سفر "إرميا" الآية: ١٣:

"وأعاقب الذين يسكنون في أرض مصر كما عاقبت أورشليم بالسيف و الجوع و الوباء"

وقد وقعت الإشارة إلى تعذيب فرعون وآله بالطاعون في قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ...﴾ (سورة الأعراف، الآيتان: ١٣٣-١٣٤). حيث فسَّر بعضهم "الرجز" بالعذاب وبعضهم بالطاعون، وأخرج الطبري عن سعيد بن جبير قال:

"وأمر موسى قومه من بني إسرائيل، وذلك بعد ماجاء قوم فرعون بالآيات الخمس الطوفان وما ذكر الله في هذه الآية، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فقال: ليذبح كل رجل منكم كبشا ثم ليخضب كفه في دمه ثم ليضرب به على بابه، فقالت القبط لبني إسرائيل: لِمَ تجعلون هذا الدم على أبوابكم؟ فقالوا إن الله يرسل عليكم عذابا فنسلم وتهلكون، فقالت القبط: فما يعرفكم الله إلا بهذه العلامات فقالوا: هكذا أمرنا به نبينا، فأصبحوا وقد طعن من قوم فرعون سبعون ألفا فأمسوا وهم لا يتدافنون، فقال فرعون عند ذلك: ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز ـ وهو الطاعون ـ لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشفه عنهم فكان أوفاهم كلهم فرعون، فقال لموسى: اذهب ببني إسرائيل حيث شئت"[٣٠].

٢٩- فتح الباري، ١٠/ ١٨٣.

٣٠- تفسير الطبري، ٩/ ٤٠.

وقال الحافظ: "وهذا مرسل جيد الإسناد"(٣١) وقد ذكر الطبري بعده رواية أخرى مسندة إلى ابن عباس رضي الله عنه. وقد وقعت إشارة إليه في الإصحاح الثاني عشر من سفر "الخروج" لكن ليس فيه التصريح بالطاعون، والمقصود بالذكر هنا ما دلت عليه بعض الاكتشافات الحديثة من انطواء هذه الآيات والآثار من الإعجاز الغيبي، فتقول موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة على شبكة إنترنيت(٣٢):

"لقد أخبر القرآن الكريم عن كوارث حلت بمصر في حقبة من تاريخ البشرية في زمن المملكة الوسطى في مصر وعن أسباب هذه الكوارث بشيء من التفصيل قبل أكثر من ١٤٠٠سنة، فقد كانت الحضارة الفرعونية مندثرة ومدفونة تحت طبقات من الرمال الصحراوية في وادي الملوك بمصر عند مبعثه صلى الله عليه وسلم، ولم تسمع بها قريش ولا حتى أهل مصر أنفسهم، لم يكونوا يعرفون شيئاً عن تفاصيلها إلا بعض الأساطير والأخبار المغلوطة وبعض الإشارات الغامضة في التوراة والتي كان الكثير منها مليئاً بالأخطاء التاريخية، ولم تتمكن البشرية من اكتشاف أسرار الحضارة الفرعونية إلا في مطلع القرن الثامن عشر عند وصول الحملة الفرنسية إلى مصر بقيادة نابليون والذي اصطحب معه عالم الآثار الشهير شامبليون الذي اكتشف حجر رشيد والذي تم من خلاله فك رموز الكتابة الفرعونية .

"أما الكوارث التي حلت بمصر لم تكتشف إلا في عام ١٩٠٩م عندما عثر علماء الآثار على كتاب من ورق البردي دوّن عليه أحد رجال قصر فرعون النكبات التي حلت بمصر في عصر المملكة الوسطى ولقد تم الاحتفاظ بهذا المخطوط الهام في متحف "ليدن" في هولندا ولقد قام بترجمته الباحث والخبير في تاريخ مصر القديمة أ.هـ **كاردنير** (A. H. Gardiner)".

ثم ذكر الموقع بعض العبارات المترجمة إلى العربية، منها:

"الوباء في كل أنحاء الأرض، الدم في كل مكان".

"النهر هو كالدم".

٣١- **فتح الباري**، ١٠/ ١٨٣.

٣٢- موقع www.٥٥a.net.

"إن الارتباك والضجة المخيفة امتدت في كل الأرض لم يكن هناك خروج من القصر ولم يستطع أحد رؤية وجه رفيقه لمدة تسعة أيام لقد تدمرت البلدان بالمد المحتوم لقد عانت مصر العليا من الخراب .. الدم في كل مكان وكان ينتشر الطاعون في جميع أنحاء البلاد".

٢- **الطاعون وخز من الجن:**

لقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في سبب الطاعون أنه من وخز الجن، فروي من حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "فناء أمتي بالطعن والطاعون" فقيل: يارسول الله هذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: "وخز أعدائكم من الجن، وفي كل شهداء" أخرجه أحمد[٣٣] عن عبد الرحمن قال حدثنا سفيان عن زياد بن علاقة عن رجل عن أبي موسى، وذكر الحافظ أن لحديث أبي موسى ثلاث طرق، الأولى هذه المذكورة، وفيها الرجل الذي يروي عنه زياد بن علاقة مبهم،وعزاه الحافظ في **الفتح** إلى البزار والطبراني، وذكر أنهما سَمّيا المبهم "يزيد بن الحارث" وقال بعد بضعة أسطر:

"ورجاله رجال الصحيحين إلا المبهم، وأسامة بن شريك صحابي مشهور، والذي سمّاه وهو أبو بكر النهشلي من رجال مسلم فالحديث صحيح بهذا الاعتبار،وقد صححه ابن خزيمة والحاكم "[٣٤].

والطريق الثانية هي مارواه أحمد والطبراني عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبي موسى بمعناه، قال الحافظ:

"ورجاله رجال الصحيح إلا أبا بلج ـ بفتح الموحدة وسكون اللام بعدها جيم ـ واسمه يحيى، وثقه ابن معين والنسائي وجماعة وضعفه جماعة بسبب التشيع، وذلك لا يقدح في قبول روايته عند الجمهور"[٣٥].

ثم قال:

"وللحديث طريق ثالثة أخرجها الطبراني من رواية عبد الله بن المختار عن كريب بن

٣٣- **مسند أحمد بن حنبل**، برقم: ١٩٥٤٦.

٣٤- **فتح الباري**، ١٠/ ١٨٢.

٣٥- نفس المرجع.

الحارث بن أبي موسى عن أبيه عن جده، ورجاله رجال الصحيح إلا كريبا وأباه، وكريب وثقه ابن حبان"(٣٦).

ولحديث أبي موسى شواهد، منها مارواه أبويعلى عن عبد الأعلى حدثنا معتمر بن سليمان قال سمعت ليثا يحدث عن صاحب له عن عطاء قال قالت عائشة ذكر الطاعون فذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وخزة تصيب أمتي من أعدائهم من الجن غدة كغدة الإبل من أقام عليه كان مرابطا ومن أصيب به كان شهيداً ومن فر منه كالفار من الزحف(٣٧) قال الحافظ: "إسناده واه من أجل ليث وشيخه"(٣٨) والشاهد الثاني ماذكره الهيثمي(٣٩) من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فناء أمتي في الطعن والطاعون قلنا قد عرفنا الطعن فما الطاعون قال وخز أعدائكم من الجن وفي كل شهادة قال الهيثمي: "رواه الطبراني في **الصغير والأوسط** وفيه عبد الله بن عصمة النصيبي قال ابن عدي: له مناكير وقد وثّقه ابن حبان. "وذكر الحافظ أن حديث ابن عمر أضعف من حديث عائشة، وقال: "والعمدة في هذا الباب على حديث أبي موسى؛ فإنه يحكم له بالصحة لتعدد طرقه إليه"(٤٠).

والوخز هو الطعن الذي يكون غير نافذ، وتتضمن هذه المادة معنى القلة أيضاً، قال الفيروزآبادي: "الوخز ـ كا لوعد ـ الطعن بالرمح وغيره لا يكون نافذا والتبزيغ والقليل من كل شيء"(٤١)، وقال ابن منظور: "الوخز الشيء القليل من الخضرة في العذق، والشيب في الرأس وقد وخزه وخزا، وقيل: كل قليل... وقالوا:هذه أرض بني تميم وفيها وخز من بني عامر أي قليل"(٤٢).

وهذا المذكور في الحديث من سبب الطاعون مخالف لما كان عليه الأطباء من أن سببه هو فساد الهواء أو فساد المزاج بغلبة بعض الأخلاط أو انصباب الدم، فحاول بعض شارحي الحديث التوفيقَ بين ما قاله الأطباء وبين ماجاء في الحديث بأنه يمكن أن يكون فساد المزاج أو الهواء مسببا من طعنة الجن الباطنة، وبما نقله الحافظ عن الكلاباذي:

٣٦- نفس المرجع.

٣٧- **مسند أبي يعلى**، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٧م، رقم: ٤٦٦٤.

٣٨- ابن حجر العسقلاني، **المطالب العالية**، دار المعرفة، بيروت، ٩/ ٢١٧.

٣٩- الهيثمي، **مجمع الزوائد**، دار الريان للتراث، القاهرة وبيروت، ١٤٠٧هـ، ج ٢، ص ٣١٤.

٤٠- **فتح الباري**، ج١٠، ص ١٨٢.

٤١- الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، ج١، ص ٦٧٩.

٤٢- **لسان العرب**، ٥/ ٤٢٨.

"يحتمل أن يكون الطاعون على قسمين: قسم يحصل من غلبة بعض الأخلاط من دم أو صفراء محترقة أو غير ذلك من غير سبب يكون من الجن، وقسم يكون من وخز الجن؛ كما تقع الجراحات من القروح التي تخرج في البدن من غلبة بعض الأخلاط وإن لم يكن هناك طعن وتقع الجراحات أيضاً من طعن الإنس"(٤٣).

وذهب بعضهم إلى نقد ما قاله الأطباء نقدا علميا تجريبيا بدلا من الانبهار لما قالوه، ومن ذلك ما قاله الحافظ:

"ومما يؤيد أن الطاعون إنما يكون من طعن الجن وقوعه غالبا في أعدل الفصول وفي أصح البلاد هواء وأطيبها ماء، ولأنه لو كان بسبب فساد الهواء لدام في الأرض لأن الهواء يفسد تارة ويصح أخرى، وهذا يذهب أحياناً ويجيء أحياناً على غير قياس ولا تجربة، فربما جاء سنة على سنة وربما أبطأ سنين، وبأنه لو كان كذلك لعم الناس والحيوان، والموجود بالمشاهدة أنه يصيب الكثير ولا يصيب من هم بجانبهم مما هو في مثل مزاجهم، ولو كان كذلك لعم جميع البدن وهذا يختص بموضع من الجسد ولا يتجاوزه، ولأن فساد الهواء يقتضي تغير الأخلاط وكثرة الأسقام وهذا في الغالب يقتل بلا مرض؛ فدل على أنه من طعن الجن كما ثبت في الأحاديث الواردة في ذلك"(٤٤).

وحاصل هذه العبارة أن التجربة شاهدة بأنه لاعلاقة ـ في معظم الأحوال ـ للطاعون بفساد الهواء، وأنه لاينشأ من داخل الإنسان، بل يحدث بإصابة شيء خارج جزءاً معيناً من بدن الإنسان، وهذا الذي عُبّر عنه في الحديث بالوخز،ودلت التجارب والدراسات العلمية الحديثة أن ما نهجه الحافظ في ضوء الأحاديث النبوية كان صحيحا دون ما حاوله البعض من إخضاع الحديث للنظرية الطبية السائدة في ذلك الوقت، فقد سبق أن ذكرنا أن أعم أنواع الطاعون وجودا ـ وهو الطاعون الغددي ـ يصيب الإنسان من عضِّ البرغوث الحامل للبكتيريا، وما نقلناه آنفاً في معنى الوخز يصدق بدقة على هذا العضّ، بقي أن الحديث يدل على أنه من وخز الجن، والثابت بالتجربة أنه من وخز البرغوث، فأجاب عنه بعض العلماء المعاصرين أن المراد بالجن في الحديث هو البرغوث لأن الجن مشتق من الاجتنان وهو الاختفاء،

٤٣- **فتح الباري**، ١٠/ ١٨١.

٤٤- نفس المرجع.

أُطلق الجن على البرغوث لصغره وخفائه[٤٥]، لكن لاداعي إلى صرف الحديث عن ظاهره، فيمكن أن يكون الحامل للبراغيث لعض الإنسان ـ ولو في بعض الأحايين ـ بعض الشياطين من الجن، ويشهد لذلك ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في تعليل أمره بإطفاء النار عند النوم بأن الشيطان يحمل الفأرة على إحراق البيت، فروى ابن عباس أن فأرة جاءت، فأخذت تجر الفتيلة، فجاءت بها، فألقتها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخمرة التي كان قاعداً عليها، فأحرقت منها مثل موضع الدرهم؛ فقال: "إذا نمتم فأطفئوا سرجكم فإن الشيطان يدل مثل هذه على هذا فتحرقكم"[٤٦]. فكما أن الإحراق يمكن أن يكون بأمر طبيعي، ويمكن أن يكون بدلالة الشيطان للفأرة على هذا العمل كذلك عض البراغيث للإنسان يمكن أن يكون بأمر طبيعي كما يمكن أن يكون بحمل الشيطان إياها على ذلك.

فالحاصل أن ما يتعلق بسبب الطاعون أمران: أمر حسي وأمر معنوي، أما الحسي فقد ثبت بالتجارب العلمية الحديثة أنه يرجع إلى الوخز وهو ما بيّنه النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يصل إليه الطب بثلاثة عشر قرنا، والجانب الحسي هو الذي يعتني به الطب والعلوم التجريبية الأخرى، أما الجانب المعنوي فهو مما يخص به الوحي الإلهي، وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أنه يرجع إلى الجن، وليس فيه ما يخالف الأمر الثابت حسا ـ وهو عض البرغوث ـ فلا داعي لنفيه أو التأويل فيه، وخاصة إذا كان الجانب الذي يخص الأطباء قد ثبت فيه صحة ما جاء في الحديث وسبقُه إلى الحقيقة، فالجانب المعنوي أولى أن يعوّل فيه عليه.

٣- الطاعون لايزال موجودا:

لقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم بيانا واضحا أن عدم إصابة الطاعون إنسانا في وقت ما لايعني عدم وجوده أصلا بل إنه يكون موجودا و إن كان مختفيا عن عين الإنسان العادية، وأن ما يصيبه الناس اليوم منه هو امتداد لما كان يصيب الناس من قبلنا، فجاء فيما رواه البخاري[٤٧] عن سعد رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: "رجز أو عذاب عُذِّب به بعض الأمم ثم بقي منه بقيّة فيذهب المرة ويأتي الأخرى" وحين ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لم يكن هناك ـ حتى من الأطباء ـ أحد يعرف

٤٥- هذا ما نقله بعض مواقع إنترنت عن كتاب **العدوى بين الطب وحديث المصطفى**، لمحمد علي البار عضو الكلية الملكية للأطباء في لندن، لكنني لم أظفر بهذا الكتاب.

٤٦- **سنن أبي داود** مع شرحه: **عون المعبود**، دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٩٩٥م، كتاب الأدب، باب في إطفاء النار بالليل برقم: ٥٢٤٧.

٤٧- **صحيح البخاري**، كتاب الحيل، باب ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون، رقم: ٦٥٧٢.

أن للطاعون وجودا مستقلا، وأنه لايزال موجودا، حتى اكتشف اسكندر يرسن بكتيريا الطاعون، وكان ذلك فتح باب جديد للاكتشافات العلمية الأخرى، وقد أثبتت هذه الاكتشافات صحة ما سبق النبي الأمي صلى الله عليه وسلم إلى بيانه، يقول كرستوفر في مقاله المندرج في **دائرة معارف انكارتا**: "هناك حالات لإصابة الطاعون الإنسان في غرب وجنوب غرب الولايات المتحدة، إذا كان هناك اتصال بعض الحيوانات الموجود فيها البكتيريا، وذكر أنه كان هناك سبع حالات لمثل هذه الإصابة سنة ١٩٩٥م، ويقول موقع الجزيرة نت نقلا عن بعض المصادر العلمية: "ويقدر عدد المصابين بالطاعون حول العالم بين ١٠٠٠ و٣٠٠٠ شخص سنويا"(٤٨). ويقول موقع بي بي سي: "ويصاب بالطاعون ما يقرب من ٢٥٠٠ شخص حول العالم، لكن إصابتهم تحدث بشكل طبيعي"(٤٩). ويذكر الدكتور جون لارسن كبير أطباء المستشفي الرسمي في كوپن هاجن في حوار أجرت معه هيئة الإعجاز العلمي في القرآن و السنة ـ مكة المكرمة أنه عند دراسة عدة أمراض وبائية اكتشف جرموثة جديدة في لحم الخنزير وأنها من مجموعة جراثيم اليارسينيا، ويقول: هي موجودة في الطبيعة حولنا، ولكن لانعرف حتى الآن كيف تتم العدوى بها(٥٠). ويذكر موقع بي بي سي أن العلماء البريطانيين قد نجحوا في تطوير لقاح للطاعون، ويقول الموقع مبينا أهمية هذا الاكتشاف:

> "وقال متحدث باسم معامل بورتون داون: "هذه مرحلة مهمة للغاية، وفيها حققنا خطوة ناجحة للتأكد من أمان اللقاح، والآن يمكننا أن ننتقل إلى تجربة اللقاح على نطاق أوسع". .... وقال إن العمل على صنع لقاح ضد الطاعون أصبح ذا أهمية كبيرة هذه الأيام، حيث قد تسعى منظمات إرهابية إلى استخدام وسائل غير تقليدية، مثل الأسلحة الكيماوية والبيولوجية. وحذر البروفيسور من أن أي إرهابي يحمل درجة علمية في علم الأحياء الدقيقة يستطيع أن يصنع سلاحا مستخدما بكتيريا الطاعون. وقال: إن الطاعون يعد أحد المخاوف البيولوجية التي قد يستخدمها الإرهاب ويجب الاحتراز له"(٥١).

فهذه الدراسات كلها توضح أن الطاعون يكون موجوداً في الدنيا حتى وفي حالات عدم فشو وبائه، وهذا

٤٨- موقع الجزيرة نت: ٥/ ١٠/ ٢٠٠٤م.

٤٩- www.bbcarabic.com١٩/٠٢/٢٠٠٠.

٥٠- www.nooran.org/o/٤/٤٠٤.htm

٥١- www.bbcarabic.com ١٩/٠٢/٢٠٠٠

الذي بيّنه النبي صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرنا بقوله : "وقد بقيت منه بقية فيذهب المرة ويأتي الأخرى".

٤ - **الحجر الصحي بين العلم الحديث والحديث النبوي:**

لقد نشر موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة حوارها مع الدكتور لارسن جون كبير أطباء المستشفى الرسمي في كوبن هاجن، وجاء في هذا الحوار(٥٢):

- هيئة الإعجاز: إذا كنت حاكما على مدينة وأصيبت تلك المدينة بمرض وبائي خطير أو ما يسمى بالطاعون فماذا تفعل يا دكتور؟
- الدكتور جون لارسن: سآتي بالجنود وأضرب الحصار على المدينة لمنع الخروج منها أو الدخول إليها.
- هيئة الإعجاز: أما أن تمنع الدخول فقد علمناه، ولكن لماذا تمنع الخروج؟
- أجاب الدكتور جون لارسن: لأن الدراسات في الفترة المتأخرة من العلم كشفت لنا أنه عندما يكون الطاعون منتشرا في مدينة من المدن أو منطقة من المناطق فإن عدد الذين يظهر عليهم أعراض المرض يتراوح نسبتهم ما بين (١٠ــ٣٠٪).
- هيئة الإعجاز: والباقون من سكان المدينة مابالهم؟
- دكتور لارسن: هؤلاء الباقون يحملون الجرثومة في أجسادهم لكن جهاز المناعة عندهم يتغلب على الجراثيم فتبقى في الجسم و لكنها لا تضره، فإذا بقي هذا الصحيح في البلدة التي فيها الطاعون فلا خوف عليه لأنه ملقح ولأن عنده المقاومة من جهاز المناعة تدفع عنه المرض، أما لو خرج من هذه المدينة أو البلد فإنه يخرج حاملا لهذه الجرثومة فينقل ذلك المرض إلى مدينة جديدة وقد ينشأ عن ذلك هلاك ملايين من البشر بسبب خروج هذا المصاب بالجرثومة من بين أهل المدينة المصابين بالطاعون.

ويطلق على مثل الإجراء الذي ذكره الدكتور لارسن مصطلح "الحجر الصحي" (quarantine) وهو يعني المنع القانوني من دخول بلد أو موضع للأشياء أو الأشخاص الذين يعتقد فيهم أنهم يحملون مرضا معديا، خاصة الطاعون، وكان أول ما طبق هذا القانون في البندقية في القرن الرابع العشر الميلادي بسبب انتشار التجارة البحرية حين لاحظوا أن السفن الراجعة من بعض المناطق تسبب فشو الطاعون،

٥٢- نفس المرجع.

فألزم القانون عزل هذه السفن عن الميناء و عن السفن الأخرى لمدة يعتقد فيها أن آثار المرض الموجودة في بعض الأشخاص أو الأشياء قد انتهت أو تضاءلت، وكانت هذه المدة في البداية ثلاثين يوما ثم جعلوها أربعين يوما، وبرَّروا ذلك بأن موسى و عيسى عليهما السلام قضيا هذه المدة في الخلوة(٥٣)، ومع مرور الزمن اتخذت الدول الأخرى مثل هذه الإجراءات، واتبعت الدول الأروبية الأنموذج البندقي إلى قرون. وكان فرض هذا القانون في البداية لمنع فشو الطاعون، لكن وُسّع فيما بعد ـ بسبب نمو التجارة مع الأمريكا ـ إلى الأمراض المعدية الأخرى مثل الكوليرا و الحمّى الصفراء(٥٤).

وفي القرن التاسع عشر أدى عدم رضا بعض الدول بقانون "قرنطين" أو "الحجرالصحي" إلى انعقاد مؤتمر عالمي حول الموضوع في باريس سنة ١٨٥١م دار فيه النقاش حول ضرورة مثل هذه القوانين أو عدم وجودها بين الدول المستفيدة منها وبين التي كانت تواجه خسائر تجارية بمثل هذه الإجراءات من جهة، ومن جهة أخرى بين "contagionists" أي القائلين بانتقال الأمراض من أشخاص إلى آخرين، وبين "miasmatists" أى القائلين بأن الأمراض تفشو بسبب فساد في الهواء، وهذا النقاش وإن لم ينتج إلغاء الحجر الصحي، لكن المؤتمر انتعي بوضع معايير له، ومعظم الدول لم تصدق رسميا على قرارات المؤتمر فيما بعد(٥٥).

وبعد مزيد معرفة الإنسان بأسباب وطرق انتشار الأمراض المتعدية، حدثت تعديلات في استعمال هذا القانون، فإنه توضَّحَ بالدراسات الحديثة أنه لا يجب أن ينتشر كل مرض باتصال شخص بآخر، بل له أسباب أخرى مع هذا السبب، ويقول مقال دائرة المعارف البريطانية: إنه من المهم في الطاعون عزل شخص مريض عن الآخرين، لكن هذا لايجدي في الطريق الرئيسي لإصابة هذا المرض، ويذكر أن الحجر الصحي في شكله المعدّل يفرض حتى الآن في بعض الحالات(٥٦) ولعل أحدث مثال لذلك ما وقع خلال الطاعون المتفشي في الهند في التسعينات من القرن الماضي.

على أية حال، فإن البشرية لم تنتبه بشكل واسع إلى ضرورة مثل هذا الحجر، لكن النبي الأمي الذي لاينطق عن الهوى نعي متبعيه عن الدخول ببلد قد فشا فيها الطاعون إذا كان خارجا عنه وعن الخروج منه إذا كان موجوداً فيه، فجاء في **صحيح البخاري**: "فمن سمع به بأرض فلا يقدمن عليه ومن

٥٣- *Encyclopedia Britannica,* article : "quarantine"

٥٤- نفس المرجع.

٥٥- نفس المرجع.

٥٦- نفس المرجع.

كان بأرض وقع بها فلا يخرج فراراً منه"(٥٧) وسنعرض لشرح هذا الحديث فيما بعد، والمهم هنا هو أن النبي صلى الله عليه وسلم نبّه عليه قبل قرون.

وذكرت بعض الدراسات الحديثة أن هناك أيضاً فترة حضانة وهي الفترة الزمنية التي تسبق ظهور الأمراض منذ دخول الميكروب إلى الجسم و في هذه الفترة يكون انقسام الميكروب وتكاثره على أشده و مع ذلك فلا يبدو على الشخص في فترة الحضانة هذه أنه يعاني من أي مرض .. ولكنه بعد فترة قد تطول أو تقصر ـ حسب نوع المرض والميكروب الذي يحمله ـ تظهر عليه أعراض المرض الكامنة في جسمه(٥٨). واقرأ مع ذلك ما ذكره القرطبي ولاحظ ما أعطي الفقهاء المسلمون من ذكاء ووصول إلى الحقيقة:

> وقد قيل: إنما نهي عن الفرار منه لأن الكائن بالموضع الذي الوباء فيه لعله قد أخذ بحظ منه لاشتراك أهل ذلك الموضع في سبب ذلك المرض العام، فلا فائدة لفراره بل يضيف إلى ما أصابه من مبادئ الوباء مشقات السفر، فتتضاعف الآلام ويكثر الضرر، فيهلكون بكل طريق ويطرحون في كل فجوة ومضيق؛ ولذلك يقال: ما فر أحد من الوباء فسلم، حكاه ابن المدائني(٥٩).

٥- **الطاعون لم يدخل المدينة المنورة:**

من الإخبار بالمغيب الذي تبين ولايزال يتبين صدقها مع مرور الزمن ما روي عنه صلى الله عليه وسلم من حديث عدة من الصحابة أن الطاعون لايدخل المدينة المنورة(٦٠)، ومن ذلك ما رواه البخاري(٦١) وغيره عن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل المدينة المسيح ولا الطاعون" وقد ثبت بالتجربة أنه لم يدخله فعلا، قال الحافظ:

> "قد جزم ابن قتيبة في **المعارف** وتبعه جمع جم من آخرهم الشيخ محيي الدين النووي في **الأذكار** بأن الطاعون لم يدخل المدينة أصلا ولا مكة أيضاً، لكن نقل جماعة أنه دخل مكة في الطاعون العام الذي كان في سنة تسع وأربعين وسبعمائة، بخلاف المدينة، فلم يذكر أحد قط أنه وقع بها الطاعون أصلا"(٦٢).

٥٧- **صحيح البخاري**، كتاب الحيل، باب ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون، برقم: ٦٥٧٣.

٥٨- www.heartdes.com

٥٩- القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، دار الشعب، القاهرة، ٣/ ٢٣٣.

٦٠- وسنعرض لطرق هذا الحديث فيما بعد.

٦١- **صحيح البخاري**، برقم: ٥٣٩٩.

٦٢- **فتح الباري**، ١٠/ ١٩٠.

وقال الزرقاني:

"وقد عدّوا عدم دخوله المدينة من خصائصها، وهو من لوازم دعائه صلى الله عليه وسلم لها بالصحة، فهي معجزة له، قال بعضهم: لأن الأطباء من أولهم إلى آخرهم عجزوا أن يدفعوا الطاعون عن بلد من البلاد بل عن قرية من القرى، وقد امتنع الطاعون عن المدينة بدعائه وخبره هذه المدد المتطاولة فهو خاص بها"(٦٣).

وعلل بعضهم ذلك بأن الطاعون من وخز أعداء المسلمين من الجن، و كفار الجن وشياطينهم ممنوعون من دخولها، ومن اتفق دخوله فيها لا يتمكن من طعن أحد منهم.

لكن هناك سؤالين لابد من التعرض لهما قبل الانتقال إلى موضوع آخر، الأول: هل يخص هذا الحكم زمنا دون زمن أم هو عام لجميع الأزمنة، والثاني: ما حكم مكة في هذا الصدد.

أما الأول فقد رُوي حديث عدم دخول الطاعون المدينة عن عدة من الصحابة، وجاء في معظمها ذكر عدم دخول الدجال مع الطاعون، وإليكم عرضا سريعا لمثل هذه الروايات:

١- حديث أبي هريرة رضي الله عنه رواه مالك(٦٤) عن نعيم بن عبد الله المجمر عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال" وأخرجه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم عن طريق مالك(٦٥)، ولحديث أبي هريرة رضي الله عنه طريق أخرى أخرجها أحمد قال: حدثنا قتيبة حدثنا عبد العزيز عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال"(٦٦)، وله طريق ثالثة أخرجها أيضاً أحمد(٦٧) قال: حدثنا سريج قال ثنا فليح عن عمرو بن العلاء الثقفي عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة على كل نقب منها ملك لا يدخلها الدجال ولا الطاعون".

٢- حديث أنس رضي الله عنه قال البخاري: حدثني يحيى بن موسى حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا

٦٣- **شرح الزرقاني على الموطأ**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ، ٤/ ٢٨٩.

٦٤- الإمام مالك، **الموطأ**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، مصر، رقم: ١٥٨٢.

٦٥- **صحيح البخاري** برقم: ١٧٨١، ٥٣٩٩، **صحيح مسلم**، رقم: ١٣٧٩، **مسند الإمام أحمد بن حنبل** رقم: ٧٢٣٣.

٦٦- **مسند أحمد**، برقم: ٨٩٠٤.

٦٧- نفس المرجع، برقم: ١٠٢٧٠.

شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة يحرسونها فلا يقربها الدجال"، قال: "ولا الطاعون إن شاء الله" أخرجه أيضاً الترمذي وأحمد وأبويعلى وابن حبان بأسانيدهم إلى يزيد بن هارون به[٦٨].

٣- حديث جابر رضي الله عنه قال الإمام أحمد: حدثنا حسن ثنا بن لهيعة أنا أبو الزبير قال وأخبرني جابر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مثل المدينة كالكير، وحرَّم إبراهيم مكة وأنا أَحَرِّم المدينة، وهي كمكة حرام ما بين حرتيها وحماها كلها لا يقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل منها، ولا يقربها إن شاء الله الطاعون ولا الدجال، والملائكة يحرسونها على أنقابها وأبوابها"[٦٩].

٤- حديث أبي عسيب رضي الله عنه جاء في **مسند الحارث** "زوائد الهيثمي": حدثنا يزيد يعني بن هارون ثنا مسلم بن عبيد أبو نصيرة قال سمعت أبا عسيب مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتاني جبريل بالحمى والطاعون فأمسكت الحمى المدينة وأرسلت الطاعون إلى الشام، والطاعون شهادة لأمتي ورحمة لهم ورجس على الكافرين"[٧٠].

٥- حديث سعد وأبي هريرة رضي الله عنهما قال أبويعلى: حدثنا زهير حدثنا عثمان بن عمر حدثنا أسامة بن زيد حدثنا أبو عبد الله القراظ أنه سمع سعد بن مالك وأبا هريرة يقولان: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم بارك لأهل المدينة في مدينتهم وبارك لهم في صاعهم وبارك لهم في مدهم، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك وإني عبدك ورسولك وإن إبراهيم سألك لأهل مكة وإني أسألك لأهل المدينة مثل ما سألك إبراهيم لأهل مكة ومثله معه، إن المدينة مشبكة على كل نقب منها ملكان يحرسانها، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال، من أرادها بسوء

٦٨- **صحيح البخاري**، برقم : ٦٧١٥، **سنن الترمذي**، برقم: ٢٢٤٢ باب ما جاء في صفة الدجال، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، برقم : ١٢٢٦٦، **مسند أبي يعلى**، برقم : ٣٠٥١، **صحيح ابن حبان**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٩٣م، برقم : ٦٨٠٤.

٦٩- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، برقم : ١٥٢٧٠.

٧٠- **مسند الحارث**، (زوائد الهيثمي)، تحقيق: حسين أحمد صالح، مركز خدمة السنة، المدينة المنورة، ط ١، ١٤١٣هـ، باب ما جاء في الطاعون، ١/ ٣٥٨.

أذابه الله كما يذوب الملح في الماء"[71]، وأخرجه أيضاً أحمد والحاكم، وقال الحاكم: "صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه" ووافقه عليه الذهبي[72].

٦- حديث أسامة بن زيد قال البزار: حدثنا عمرو بن علي قال أخبرنا أبو داود قال أخبرنا إبراهيم ابن سعد عن الزهري قال حدثني عياض وكان ابن عم أسامة بن زيد وكان أسامة أنكحه ابنته عن أسامة بن زيد أن رجلا من بعض النواحي جاء، حتى إذا دنا من المدينة ظن أن بها الوجع ـ يعني الطاعون ـ قال قد عرفت أو عرف أن رسول الله قال: " إني لأرجو أن لا يطلع علينا المدينة" يعني الطاعون[73]، وأخرجه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري ـ مرسلا ـ أن رجلا مات في بعض الأرياف من الطاعون ففزع له الناس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم حين بلغه ذلك: "فإني أرجو ألا تطلع إلينا بقاياها"[74].

٧- أثر موقوف على عمر رضي الله عنه قال: "إن الله تعالى اختار لنبيّه المدينة وهي أقل الأرض طعاما وأملحه ماء إلا ما كان من هذا التمر فإنه لا يدخلها الدجال ولا الطاعون إن شاء الله تعالى". ذكره الحافظ في **المطا لب العالية**[75] وعزاه إلى الحارث. وذكر محققه حبيب الرحمن الأعظمي أن البوصيري وثق رجاله، إلا أن أبا البختري لم يسمع من عمر فالإسناد منقطع.

وبعد النظر في هذه الأحاديث يمكن لنا أن نقسم المدينة المنورة من حيث منع الطاعون عنها إلى ثلاثة أزمنة: زمن النبي صلى الله عليه وسلم وزمن خروج الدجال، والثالث ما بينهما من الزمن. ولاشك أن الأحاديث: الأول والثاني والثالث والخامس والسابع كلها صريحة في عدم دخوله المدينة زمن الدجال، كما أن الرابع والسادس يكادان أن يكونا صريحين في عدم دخوله زمن النبي صلى الله عليه وسلم، بقي مابينهما من الزمن، فالأحاديث التي قرن فيها ذكر الدجال مع ذكر الطاعون تحتمل معنيين؛ الأول: أن هذا القران مبني على الاقتران الزمني لعدم الدخول، والثاني: أنه لاعلاقة لاقتران ذكرهما باقترانهما الزمني،

٧١- **مسند أبي يعلى**، رقم: ٨٠٤.

٧٢- **مسند أحمد**، رقم: ١٥٩٣، الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، مع **تلخيص الذهبي**، دارالفكر، بيروت، ١٩٧٨هـ ٤/ ٥٤٢.

٧٣- **مسند البزار**، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ط ١، ١٤٠٩هـ، رقم: ٢٦١٦.

٧٤- **مصنف عبدالرزاق**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ، ١١/ ١٤٨ رقم: ٢٠١٦٠.

٧٥- **المطالب العالية**، ١/ ٣٧٠ رقم: ١٢٤٨.

والمعنى أن كلا منهما لايدخلها في زمنه المتعلق به، وإنما قُرن بينهما لمشابهتما في الانتشار والفشو، فالطاعون إذا فشا في منطقة فشا بسرعة وكذلك الدجال تنتشر فتنته في الدنيا بسرعة فائقة، لكن الله تعالى بقدرته وإجابة لدعائه صلى الله عليه وسلم يمنعهما من دخول المدينة المنورة، وهذا المعنى الثاني هو الأليق بسياق هذه الأحاديث، لأنها وردت في مناقب وفضائل المدينة المنورة ـ زادها الله شرفا وطيبا ـ ويؤيد هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الرابع من الأحاديث المذكورة: "أتاني جبريل بالحمى والطاعون فأمسكت الحمى المدينة وأرسلت الطاعون الى الشام" فا لذي يغلب على الظن هو أن عدم دخوله عام لكل زمن، نعم، لقد فسّر القرطبي في **المفهم** على ما نقله عنه الحافظ[٧٦] بأن المعنى لا يدخلها من الطاعون مثل الذي وقع في غيرها كطاعون عمواس والجارف. لكن الأمر الواقع أنه لم يثبت دخول المدينة المنورة مطلقا. والله أعلم.

والسؤال الثاني الذي تعرض له شرّاح الحديث هنا هو ما إذا كان مكة داخلة في هذا الحكم ، وأن الطاعون هل دخل مكة أم لا، فإذا نظرنا في الأحاديث الواردة في ذلك والمذكورة آنفا وجدنا أن عامة الأحاديث خالية عن ذكر مكة، وإنما اقتصر فيها على المدينة المنورة، لقد ذكرنا أن الأحاديث المرفوعة في هذا الصدد مروية عن سبعة من الصحابة، وهي خالية عن ذكر مكة إلا حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولحديث أبي هريرة ثلاث طرق،ولم يرد ذكر مكة إلا في واحدة منها، وهي ما رواه أحمد عن سريج قال ثنا فليح عن عمرو بن العلاء الثقفي عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة على كل نقب منها ملك لا يدخلها الدجال ولا الطاعون" وذكره الهيثمي[٧٧] عزوا إلى أحمد وقال: "رجاله ثقات" وعزاه الحافظ في **فتح الباري**[٧٨] إلى عمر بن شبة في كتاب مكة بطريق أحمد، غير أن فيه "شريح" بدل "سريج"، وقال الحافظ: "رجاله رجال الصحيح" ولعل الصحيح هو "سريج" لأن الحافظ ذكره في **تهذيب التهذيب** فيمن روى عن فليح بن سليمان. والذي يبدو أن عدم دخول الطاعون مكة غلط من بعض الرواة، لأن رواته وإن كانوا ثقاتا إلا أن فليح بن سليمان قال فيه الحافظ في **تقريب التهذيب**: "صدوق كثير الخطأ" وقال في ترجمة سريج بن النعمان: "ثقة يهم قليلا"، ومما يدل على وقوع الوهم في ذلك أن سياق حديث أحمد يبدأ بذكر مكة والمدينة" المدينة ومكة محفوفتان

٧٦- **فتح الباري**، ١٠/ ١٩٠.

٧٧- **مجمع الزوائد**، ج ٣، ص ٣٠٩.

٧٨- **فتح الباري**، ١٠/ ١٩١.

بالملائكة" ثم جاء فيه "لايدخلها الدجال ولا الطاعون" بضمير المفرد "ها" بدل "هما" وهكذا جاء في **مجمع الزوائد** عزوا إلى أحمد، فهذه الرواية غير صريحة في عدم دخوله مكة، نعم جاء في رواية عمر بن شبة ـ على ما ذكره الحافظ ـ "لايدخلهما" بضمير التثنية، فهذا الاختلاف مع ما مر من أن سريجا وفليحا يخطئان ويهمان في الحديث ومع مقارنة هذه الرواية مع الروايات الأخرى الواردة في الموضوع أنه قد وقع وهم من بعض الروة في هذه الرواية، فلا يثبت بها أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر بعدم دخوله مكة، والله أعلم.

لكن عدم ورود خبر واضح في ذلك لايقتضي أنه قد دخل مكة، بل يدل على سكوته صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر، فما هو الواقع؟ نقل الحافظ والزرقاني[٧٩] عن ابن قتيبة الجزم بأنه لم يدخل مكة أيضاً، ثم ذكر الزرقاني أنه "معارض بما نقله غير واحد بأنه دخلها في سنة سبع وأربعين وسبعمائة" وقال الحافظ: "لكن نقل جماعة أنه دخل مكة في الطاعون العام الذي كان في سنة تسع وأربعين وسبعمائة بخلاف المدينة فلم يذكر أحد قط أنه وقع بها الطاعون أصلا"، وهنا ـ كما ترى ـ اختلاف فيما قاله الحافظ من وقوعه سنة تسع وأربعين وما قاله الزرقاني من وقوعه سنة سبع وأربعين، وأيضاً هل كان هذا المرض طاعونا حقا أم كان مرضا آخر شبيها به، لأن الناس إذ ذاك لم يكونوا على تشخيص الأمراض تشخيصا دقيقا، وإذا كان طاعونا فهل كان بشكل الوباء أم كانت هناك إصابات فردية، هذا كله ما زال في حيز الخفاء، لكن مما يقوي الاحتمال الثاني هو عدم اتفاقهم على تعيين العام الذي وقع فيه وعدم ذكر كثير من المؤرخين هذا الطاعون في أحداث هذه السنة[٨٠]، فالحاصل إما أن يقال إن الحديث الذي ورد فيه عدم دخوله مكة غير ثابت بل وقع فيه وهم من بعض الرواة أو يقال إنه لم يدخل مكة أصلا، أو دخل لكن ليس كوباء عام، بل بطريقة فردية، والمراد في الحديث ـ على تقدير ثبوته ـ من عدم دخوله مكة هو عدم دخوله وباء شاملا، قال الزرقاني: "وحينئذ فالذي نقل أنه دخل مكة في التاريخ المذكور ليس كما ظن أو يقال إنه لا يدخلهما من الطاعون مثل الذي يقع في غيرهما كالجارف وعمواس".

ومن الجدير بالذكر هنا أن مكة المكرمة والمدينة المنورة من المدن التي تستضيف عدداً كبيراً من الزوار كل عام من شتى أنحاء العالم بما فيها المناطق شديدة التأثر بالأوبئة، وفيها المناطق التي فشا فيها الطاعون مراراً وبشدة، وهذا كان يقتضي فشو الطاعون فيهما أكثر من غيرهما من المدن، لكن لم تزل هاتان المدينتان محفوظتين عن تفشي هذا المرض فيهما، فهذه ظاهرة جديرة بالتنبيه والدراسة.

٧٩- نفس المرجع، ١٠/ ١٩٠، **شرح الزرقاني على الموطأ**، ٤/ ٢٨٩.

٨٠- مثلا لم يذكره ابن كثير في **البداية والنهاية** في حوادث السنتين المذكورتين.

أحكام الطاعون الثابتة بالحديث:

أهم ما ورد في الحديث النبوي صلى الله عليه وسلم من أحكام الطاعون هو النهي عن دخول البلدة التي فشا فيها لمن كان خارجا عنها والخروج عنها إذا كان موجوداً فيها قبل فشوه، لكن قبل تناول هذا الموضوع بشيء من التفصيل يجدر بنا أن نلقي نظرة عامة على غيره من الأحكام الواردة في الحديث، وهي كالآتي:

١ - **عذاب على من قبلنا:**

لقد ذكرنا الأحاديث الدالة على أن الله تعالى جعل الطاعون رجزا وعذابا على بعض بني إسرائيل وعلى غيرهم من الأمم، لكن كونه عذابا يختص بالكفار أو العصاة ممن قبلنا، أما المؤمنون والصالحون منهم فقال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن حبان عن شرحبيل بن حسنة: "موت الصالحين قبلكم"[٨١] وكذا رواه ابن أبي شيبة[٨٢] عن معاذ رضي الله عنه، وكذا ذكره الهيثمي في **مجمع الزوائد**[٨٣] بلفظ: "قبض الصالحين قبلكم" وقال: "رواه أحمد وروى الطبراني في **الكبير** ورجال أحمد ثقات وسنده متصل". وكذا كونه عذابا لايختص بالأمم السابقة، فقد يكون عذابا في هذه الأمة أيضاً كما يدل عليه الأحاديث الواردة في أن الطاعون قد يفشو لظهور الفاحشة في قوم، فأخرج ابن ماجة والبيهقي بلفظ: "لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم" الحديث، ذكره الحافظ في **فتح الباري**[٨٤] وقال: "وفي إسناده خالد بن يزيد بن أبي مالك وكان من فقهاء الشام لكنه ضعيف عند أحمد وابن معين وغيرهما ووثقه أحمد بن صالح المصري وأبو زرعة الدمشقي وقال ابن حبان كان يخطئ كثيرا وله شاهد عن ابن عباس في **الموطأ** بلفظ: ولا فشا الزنا في قوم قط إلا كثر فيهم الموت، الحديث" ثم ذكر شواهد أخرى. وما مر من أن الطاعون ينشأ عن أسباب طبيعية من عن عض البراغيث وانتقال البكتيريا لايخالف كونه عذابا لأن العذاب لايشترط فيه أن يكون خارجا عن سنن الكون العادية والنواميس الطبيعية فإن الله تعالى قد يستعمل الظواهر الطبيعية العادية سبباً لعذاب بعض الناس، مثل الرياح والأمطار وما إلى ذلك.

٨١- **صحيح ابن حبان**، ج ٧، ص ٢١٥.

٨٢- **مصنف ابن أبي شيبة**، مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ١٤٠٩هـ، ج ٦، ص ١٦١.

٨٣- **مجمع الزوائد**، ٢/ ٣١١.

٨٤- **فتح الباري**، ١٠/ ١٩٣.

ثم إن هناك فرقا بين كون الطاعون عذابا على بعض الأمم الماضية وبين كونه عذابا على بعض أفراد هذه الأمة من وجهين : الأول أن ما كان ينزل على الأمم السابقة كان بعد إنذار من نبي من الأنبياء في واقعة متعينة، فكانت جهة العذاب فيه متيقنة، أما في هذه الأمة فلا يمكن فيها مثل هذا الإنذار بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فإذا أصاب أفرادا منها فإنه يحتمل أن يكون عذابا ويحتمل أن يكون مجرد ابتلاء من الله تعالى لرفع الدرجات، والفرق الثاني أن كونه عقوبة على ظهور الفاحشة يحمل في طيّاته معنى الرحمة أيضاً، فإن ما عاناه من المشقة و الألم في ذلك يكون كفارة له بهذا القدر، ويخفف أو يعفي عنه بقدر ذلك في الآخرة. والله أعلم .

٢- رحمة للمؤمنين:

فقد روى البخاري[٨٥] عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كان عذابا يبعثه الله على من يشاء فجعله الله رحمة للمؤمنين" وجاء في حديث أبي عسيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "فالطاعون شهادة لأمتي ورحمة لهم ورص على الكافر" ذكره الهيثمي في **المجمع**[٨٦] وقال: "رواه أحمد والطبراني في **الكبير** ورجال أحمد ثقات" وكونه رحمة لأهل الطاعة من المؤمنين واضح، فما حكم العصاة، خاصة الذين أصيبوا به بمعصيتهم مثل ارتكاب الفاحشة، والظاهر أن كونه رحمة شامل لهم أيضاً، وإن كانت هذه الرحمة أقل درجة، لأن مرتكب المعصية إذا أصيب بها في الدنيا بمصيبة فإنها تكون كفارة له، كما يدل عليه ما رواه ابن حبان[٨٧] عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله جل وعلا إذا أراد بعبد خيراً عجل عقوبة ذنبه، وإذا أراد بعبد شراً أمسك عليه ذنبه حتى يوافي يوم القيامة كأنه عائر" وما رواه ابن ماجه[٨٨] عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أصاب في الدنيا ذنبا فعوقب به فالله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده ومن أذنب ذنبا في الدنيا فستره الله عليه فالله أكرم من أن يعود في شيء قد عفا عنه".

٣- الطاعون شهادة:

لقد جاء في غير واحد من الأحاديث أن الذي يموت بالطاعون ينال درجة الشهادة؛ منها

٨٥- **صحيح البخاري**، كتاب الطب، باب أجر الصابر على الطاعون.

٨٦- **مجمع الزوائد**، ٢/ ٣١٠.

٨٧- **صحيح ابن حبان**، ٧/ ١٧١ برقم : ١٩١١.

٨٨- **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، برقم : ٢٤٠٤ باب أن الحد كفارة.

ما رواه الحاكم في **المستدرك**(٨٩) ـ وصححه على شرط مسلم ـ عن أبي موسى قال: سألنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "إخوانكم أو قال أعداؤكم من الجن وهو لكم شهادة" ومنها حديث أبي عسيب عند أحمد: "فالطاعون شهادة للمؤمنين ورحمة لهم" ذكره الحافظ وسكت عليه(٩٠)، ومنها ما رواه النسائي(٩١) عن العرباض بن سارية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تختصم الشهداء والمتوفون على فراشهم إلى ربنا في الذين يتوفون من الطاعون فيقول الشهداء: إخواننا قتلوا كما قتلنا، ويقول المتوفون على فراشهم: إخواننا ماتوا على فراشهم كما متنا، فيقول ربنا: انظروا إلى جراحهم فإن أشبه جراحهم جراح المقتولين فإنهم منهم ومعهم، فإذا جراحهم قد أشبهت جراحهم".

ولاشك في كونه شهادة لأهل الطاعة من المؤمنين، أما العصاة منهم فقد تساءل الحافظ أنه جاء في الأحاديث أن الطاعون قد يقع عقوبة بسبب المعصية فكيف يكون شهادة، وأجاب عنه قائلا:

"ويحتمل أن يقال: بل تحصل له درجة الشهادة لعموم الأخبار الواردة ولا سيما في الحديث الذي قبله عن أنس "الطاعون شهادة لكل مسلم"، ولا يلزم من حصول درجة الشهادة لمن اجترح السيئات مساواةُ المؤمن الكامل في المنزلة؛ لأن درجات الشهداء متفاوتة".

فالطاعون مثل السيف في كونه سببا للشهادة، فكما أن السيف محّاء للذنوب ماسوى الدين وحقوق العباد كذلك يمكن أن يكون الطاعون محّاء لها سوى حقوق العباد.

٤ – دعوة نبيكم صلى الله عليه وسلم:

جاء في بعض الأحايث أن الطاعون دعوة من النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الأمة، منها ما رواه أحمد(٩٢) عن شرحبيل بن حسنة: "أنه دعوة نبيكم ورحمة ربكم وموت الصالحين قبلكم" وروى نحوه عن معاذ رضي الله عنه(٩٣)، وقد يستشكل ذلك بأنه في الظاهر دعاء على الأمة لا دعاء له، وأجاب عنه أبو قلابة(٩٤) بعد ما روى حديث معاذ "هو شهادة ورحمة ودعوة نبيكم صلى الله عليه وسلم" قائلا:

٨٩- **مستدرك الحاكم**، ١/ ١١٤.

٩٠- **فتح الباري**، ١٠/ ١٩٢.

٩١- النسائي، **السنن الكبرى**، ٣/ ٢٥ برقم: ٤٣٧٢.

٩٢- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، ج ٤، ص ١٩٦ برقم: ١٧٧٨٩.

٩٣- نفس المرجع، ج ٥، ص ٢٤٨ برقم : ٢٢١٨٩.

٩٤- نفس المرجع.

"فعرفت الشهادة وعرفت الرحمة، ولم أدر ما دعوة نبيكم حتى أنبئت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو ذات ليلة يصلي إذ قال في دعائه: "فحمى إذا أو طاعون، فحمى إذا أو طاعون" ـ ثلاث مرات ـ فلما أصبح قال له إنسان من أهله: يارسول الله صلى الله عليه وسلم لقد سمعتك الليلة تدعو بدعاء قال: "وسمعتَه؟" قال: نعم، قال: "إني سألت ربي عزّوجل أن لا يهلك أمتي بسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيستبيحهم فأعطانيها، وسألته أن لا يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض فأبى على أو قال فمنعنيها، فقلت حمى إذا أو طاعونا حمى إذا أو طاعونا حمى إذا أو طاعونا ثلاث مرات".

فكأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا به ليكون وقاية عن عذاب أكبر منه، والله أعلم بالصواب.

٥- الصبر فيه يوجب أجر الشهادة:

روت عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطاعون فقال: "كان عذابا يبعثه الله على من يشاء فجعله الله رحمة للمؤمنين فليس من عبد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابرا يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد"(٩٥) وهذا الحديث يقتضي أن من اتصف بالصفات المذكورة يحصل له أجر الشهيد، وإن لم يمت بالطاعون؛ فهذه الفضيلة غير ما مر في الرقم السابق.

حكم دخول بلد الطاعون والخروج منه:

من أهم الأحكام الواردة في الطاعون ما مر من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه" فنعي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دخول الأرض التي وقع بها الطاعون إذا كان الرجل خارجا عنها، وعن الخروج عن مثل هذه الأرض إذا كان موجوداً فيها وقت فشو الوباء، فما هي العلة في هذا النهي؟ وهل هو للتحريم أم للتنزيه؟ قبل الإجابة على هذا السؤال نرى لزاما أن نلقي نظرة وجيزة على حكم العدوى في الإسلام.

نظرة الإسلام إلى العدوى:

لقد وردت في العدوى أحاديث تبدو متعارضة، فمنها ما تدل على إثباتها ومنها ما يدل على نفيها، وإليكم عرضا لها قبل الحديث عن وجوه التوفيق أو الترجيح بينها.

٩٥- **صحيح البخاري**، كتاب الطب، باب أجر الصابر على الطاعون، برقم: ٥٤٠٢.

أولاً: ما ورد في نفي العدوى:

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا عدوى ولا صفر ولا هامة" فقال أعرابي: يارسول الله فما بال إبلي تكون في الرمل كأنها الظباء فيأتي البعير الأجرب فيدخل بينها فيجربها؟ فقال: "فمن أعدى الأول"[٩٦] وروى الترمذي عن ابن مسعود قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "لا يعدي شيء شيئاً" فقال أعرابي: يارسول الله البعير الجرب الحشفة بذنبه فتجرب الإبل كلها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فمن أجرب الأول؟ لا عدوى ولا صفر، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ورزقها ومصائبها"[٩٧] وقد روى قوله صلى الله عليه وسلم: "لاعدوى" عدّة من الصحابة، منهم علي بن أبي طالب[٩٨] وابن عمر[٩٩] وأنس بن مالك[١٠٠] وجابر[١٠١] وعبد الله بن عباس[١٠٢] وعبد الله بن عمرو[١٠٣] وسعد بن أبي وقاص[١٠٤] والسائب بن يزيد[١٠٥] وأبو سعيد الخدري[١٠٦] وأبو أمامة[١٠٧] رضي الله عنهم.

ثانياً: ما ورد في إثبات العدوى:

١- ما رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يوردن ممرض على مصح" وقال أبوسلمة بن عبدالرحمن أن أبا هريرة: كان يروي من قبل قوله عليه السلام: "لاعدوى" لكن "وأنكر أبو هريرة الحديث الأول قلنا: ألم تحدث أنه لا عدوى؟ فرطن

٩٦- نفس المرجع، كتاب الطب : باب لا صفر وهو داء يأخذ البطن، برقم: ٥٣٨٧.

٩٧- **سنن الترمذي**، كتاب الطب، باب ما جاء لا عدوى ولا هامة ولا صفر، برقم : ٢١٤٣.

٩٨- ابن جرير الطبري، **تهذيب الآثار**، مطبعة المدني، القاهرة، رقم الطبعة وتاريخها غير مذكورين، ج ٣، ص ٣.

٩٩- **صحيح البخاري**، كتاب الطب، باب الطيرة برقم : ٥٤٢١.

١٠٠- نفس المرجع، كتاب الطب، باب لاعدوى، برقم : ٥٤٤٠.

١٠١- **صحيح مسلم**، برقم : ٢٢٢٢ و**تفسير الطبري**، ج ١٥، ص ٥١.

١٠٢- **سنن ابن ماجه**، كتاب الطب، باب من كان يعجبه الفال ويكره الطيرة، برقم : ٣٥٣٩.

١٠٣- ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ (رقم الطبعة غير مذكور)، ج ٤، ص ٤١٢ وعزاه ابن كثير إلى أحمد وقال: تفرد به أحمد.

١٠٤- **صحيح ابن حبان**، ج ١٣، ص ٤٩٧ برقم: ٦١٢٧.

١٠٥- **تهذيب الآثار**، ج ٣، ص ١١.

١٠٦- نفس المرجع، ج ٣، ص ٢٤.

١٠٧- الطبراني، **المعجم الكبير**، ج ٨، ص ١٨٤.

بالحبشية، قال أبو سلمة: فما رأيته نسي حديثا غيره[١٠٨]" وفي رواية لمسلم: "قال أبو سلمة كان أبو هريرة يحدثهما كلتيهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صمت أبو هريرة بعد ذلك عن قوله: لا عدوى وأقام على أن لا يورد ممرض على مصح قال: فقال الحارث بن أبي ذباب وهو ابن عم أبي هريرة: قد كنت أسمعك يا أبا هريرة تحدثنا مع هذا الحديث حديثا آخر قد سكتَّ عنه كنت تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عدوى، فأبى أبو هريرة أن يعرف ذلك، وقال لا يورد ممرض على مصح فما رآه الحارث في ذلك حتى غضب أبو هريرة فرطن بالحبشية فقال للحارث أتدري ماذا قلت قال لا قال أبو هريرة قلت أبيت قال أبو سلمة ولعمري لقد كان أبو هريرة يحدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا عدوى فلا أدري أنسى أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر[١٠٩]" قال الحافظ في شرح هذا الحديث:

"والممرض بضم أوله وسكون ثانيه وكسر الراء بعدها ضاد معجمة هو الذي له إبل مرضى، والمصح بضم الميم وكسر الصاد المهملة بعدها مهملة من له إبل صحاح، نعي صاحب الإبل المريضة أن يوردها على الإبل الصحيحة"[١١٠].

٢- ما رواه أبوداود عن فروة بن مسيك قال: قلت: يا رسول الله أرض عندنا يقال لها أرض أبين هي أرض ريفنا وميرتنا وإنها وبئة أو قال وباؤها شديد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "دعها عنك فإن من القرف التلف"[١١١] والقرف مداناة الوباء والمرض[١١٢]، فمعناه أن مداناة المرض يؤدي إلى التلف أي الهلاك.

٣- مارواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وفر من المجذوم كما تفر من الأسد"[١١٣].

٤- ما رواه مسلم عن عمرو بن الشريد عن أبيه رضي الله عنه قال كان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم أنا قد بايعناك فارجع[١١٤].

١٠٨- **صحيح البخاري**، كتاب الطب، باب لاهامة، برقم : ٥٤٣٧.

١٠٩- **صحيح مسلم**، برقم : ٢٢٢١.

١١٠- **فتح الباري**، ج ١٠، ص ٢٤٢.

١١١- **سنن أبي داود**، كتاب الطب، باب في الطيرة، برقم: ٣٩٢٣.

١١٢- البيهقي، **السنن الكبرى**، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ، ٩/ ٣٤٧.

١١٣- **صحيح البخاري**، كتاب الطب، باب الجذام، برقم: ٥٣٨٠.

١١٤- **صحيح مسلم**، برقم : ٢٢٣١.

٥- ما رواه ابن أبي شيبة قال: حدثنا وكيع عن عبد الله بن سعيد عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان عن أمه فاطمة بنت حسين عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تديموا النظر إلى المجذومين"[١١٥] قال الحافظ: "وقد أخرجه ابن ماجه وسنده ضعيف"[١١٦] وأخرجه ابن جرير الطبري وفي بعض طرقه: "ومن كلمه منكم فليكلمه وبينه وبينه قيد رمح"[١١٧].

٦- ما رواه عبد الرزاق عن معمر عن أبي الزناد أن عمر بن الخطاب قال لمعيقيب الدوسي أدنه فلو كان غيرك ما قعد مني إلا كقيد الرمح وكان أجذم[١١٨]، قال الحافظ: "أخرجه الطبري من طريق معمر عن الزهري أن عمر قال لمعيقيب أجلس مني قيد رمح ومن طريق خارجة بن زيد كان عمر يقول نحوه وهما أثران منقطعان"[١١٩]، قلت: وبإضافة رواية أبي الزناد إليهما تكون هناك ثلاثة آثار.

٧- حديث عبد الله بن أبي أوفى رفعه "كلم المجذوم وبينك وبينه قيد رمحين" قال الحافظ: "أخرجه أبو نُعيم في الطب بسند واه"[١٢٠].

٨- ما ورد في نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن دخول البلد الذي فشا فيه الطاعون.

٩- ما رواه الطحاوي[١٢١] أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه زمن الطاعون "إذا أتاك كتابي هذا فإني أعزم عليك إن أتاك مصبحا لا تُمسِ حتى تركب وإن أتاك ممسيا لا تصبح حتى تركب إليّ؛ فقد عرضت لي إليك حاجة لاغنائي عنك فيها" (وكان غرض عمر من ذلك أن لايصيبه الطاعون) فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب قال: إن أمير المؤمنين أراد أن يستبقي من ليس بباق، فكتب إليه أبو عبيدة: "إني في جند من المسلمين إني

١١٥- ابن أبي شيبة، **المصنّف**، ج ٥، ص ٣١١.

١١٦- **فتح الباري**، ج ١٠، ص ١٥٩.

١١٧- ابن جرير الطبري، **تهذيب الآثار**، ج ٣، ص ١٩.

١١٨- عبد الرزاق، **المصنَّف**، ج ١١، ص ٢٠٥.

١١٩- **فتح الباري**، ج ١٠، ص ١٥٩.

١٢٠- نفس المرجع.

١٢١- الطحاوي، **شرح معاني الآثار**، عالم الكتب، ط ١، ١٤١٤هـ كتاب الكراهة، باب الرجل يكون به الداء هل يجتنب أم لا، برقم: ٧٠٣٩.

فررت من المناة والسير لن أرغب بنفسي عنهم وقد عرفنا حاجة أمير المؤمنين فحللني من عزمتك" فلما جاء عمر الكتاب بكى، فقيل له: توفي أبو عبيدة؟ قال: لا، فهذا يدل على أن عمر كان يرى أنه لو أقام أبو عبيدة في بلد الطاعون أصا به من ذلك.

ثالثا: وجه التوفيق بين هذه الأحاديث المختلفة:

لقد ذهب العلماء في رفع التعارض بين هذه الأحاديث مذاهب مختلفة، فمنهم من ذهب إلى ترجيح الروايات المثبتة للعدوى، ومنهم من ذهب في الترجيح إلى عكسِ ذلك، لكن معظمهم سلكوا في هذا مسلك الجمع و التوفيق، ولهم في ذلك أقوال، وأشهرها قولان: الأول أن الأصل هو نفي العدوى، أما الأحاديث التي أمر فيها بالبعد عن المريض أو نهي عن القرب منه فهي محمولة على حسم المادة و سد الذريعة، فإن من الممكن أن يصيبه المرض بعد الدنو من المريض أصالة، لا على سبيل العدوى فيقع بذلك في اعتقاد وجود العدوى، وقد نفاه الشرع، فنهي عن الدنو من المريض صيانة لاعتقاده، قال الحافظ: "وإلى هذا القول ذهب أبو عبيد وتبعه جماعة"(١٢٢) والقول الثاني أن هناك بابين يختلف أحدهما عن الآخر: الأول باب الطب، والثاني باب العدوى، الأول يتعلق بالأسباب الطبيعية، وهي لا تنافي قدر الله وقدرته، بل هي داخلة تحته، والثاني لاعلاقة له بالأسباب الطبيعية ولا العلم الطبيعي، وإنما ينتمي إلى التوهمات والخرافات، وأهل الجاهلية من العرب وغيرها من الأمم لم يكن عندهم كثير من علم الطب ولم يكونوا يعرفون كثيراً من أسباب الأمراض، فكانوا ينسبونها إلى بعض آلهتهم أو إلى بعض الأفعال مثل القرب من المريض، وكانوا يرون أن هذه الأمراض معدية بطبعها، لا بمشيئة الله وإذنه، فكان القول بالعدوى محتويا على الشرك أو القول في الشيء بدون علم. فالأحاديث التي نفت تعدية الأمراض إنما نفت هذا النوع منها، والأحاديث المثبتة لانتقال المرض من بعض إلى آخر أو من مكان أو من بيئة إلى إنسان إنما تثبت ما كان من هذا الانتقال من باب الطب. وممن ذهب إلى هذا القول ابن قتيبة، وذكر أن الأمراض قد تنتقل بواسطة المؤاكلة والمجالسة واحتكاك جسد بآخر وبشم الرائحة "التعدية بواسطة جهاز التنفس" وبالماء الذي يسيل من المرض، وقد ينزع المرض من الأبوين أو أحدهما إلى الولد، وهذا كله يذكره الأطباء، قال ابن قتيبة: "والأطباء أبعد الناس من الإيمان بيمن أو شؤم"(١٢٣) إذن فلا علاقة بانتقال المرض طبيا بالعدوى الخرافية، وذكر أن انتقال المرض بالطريقة المذكورة معلوم بالمشاهدة، فلايليق حمل الحديث على نفيه، قال:

١٢٢- **فتح الباري**، ج ١٠، ص ١٦١.

١٢٣- عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، **تأويل مختلف الحديث**، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢م، ج ١، ص ١٠٣.

"وقد ذهب قوم إلى أنه أراد بذلك ـ أي قوله عليه الصلاة والسلام: "لا يوردن ذو عاهة على مصح" ـ أن لا يظن أن الذي نال إبله من ذوات العاهة فيأثم قال: وليس لهذا عندي وجه لأنا نجد الذي أخبرتك به عيانا"(١٢٤) وذكر الحافظ أن الشافعي رحمه الله تعالى أشار إلى شيء من هذا فقال:

" قال البيهقي بعد أن أورد قول الشافعي ما نصه : الجذام والبرص يزعم أهل العلم بالطب والتجارب أنه يعدي الزوج كثيراً وهو داء مانع للجماع لا تكاد نفس أحد تطيب بمجامعة من هو به ولا نفس امرأة أن يجامعها من هو به، وأما الولد فبيَّن أنه إذا كان مَن ولدُه أجذم أو أبرص أنه قلما يسلم وإن سلم أدرك نسله(١٢٥).

فعلى هذا ليس المراد بنفي العدوى نفيها على الإطلاق بل المراد نفي العدوى التي كان أهل الجاهلية يعتقدونه، قال البيهقي في ترجمة باب: "باب لا عدوى على الوجه الذي كانوا في الجاهلية يعتقدونه من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى"(١٢٦) ثم قال في الباب الذي بعده: "باب لا يورد ممرض على مصح فقد يجعل الله تعالى بمشيئته مخالطته إياه سببا لمرضه" وقال بعد إخراج قوله عليه السلام: "فإن من القرف التلف": قال أبو سليمان: "وهذا من باب الطب لأن فساد الأهواء من أضرّ الأشياء وأسرعها إلى إسقام البدن عند الأطباء قال الشيخ رحمه الله تعالى: وهذا نظير قوله صلى الله عليه وسلم إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليه وكل ذلك بمشيئة الله وإذنه ولا حول ولا قوة إلا بالله"(١٢٧).

وذكر الحافظ أن هذا القول مشى عليه أكثر الشافعية و إليه ذهب ابن الصلاح(١٢٨) واختاره الزين العراقي في ألفيته(١٢٩) وقال التوربشتي على ما نقله عنه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي: "التأويل الثاني أولى لأن الأول يفضي إلى تعطيل الأسباب والأصولِ الطبيعية، ولم يرد الشرع بتعطيلها بل بإثباتها"(١٣٠) وقال المواق ـ من فقهاء المالكية ـ:

"نفي بحديث لا عدوى زعم الجاهليّة أن العاهة تُعدى بطبعها لا بفعل الله، وأرشد

١٢٤- نفس المرجع.

١٢٥- **فتح الباري**، ج ١٠، ص ١٦١.

١٢٦- البيهقي، **السنن الكبرى**، ج ٧، ص ٢١٦.

١٢٧- نفس المرجع، ج ٩، ص ٣٤٧.

١٢٨- **فتح الباري**، ج ١٠، ص ١٦١.

١٢٩- محمد زكريا الكاندهلوي، **أوجز المسالك إلى موطأ مالك**، المكتبة الإمدادية، مكة المكرمة، ط ٣، ج ١٤، ص ٤٠٦.

١٣٠- **أوجز المسالك**، ج ١٤، ص ٤٠٧.

بحديث لا يورد ممرض على مصح إلى الاحتراز مما يحصل عنده الضرر بفعل الله وإرادته، وهذا هو الصواب الذي عليه جمهور العلماء ويتعين المصير إليه"(١٣١).

وقال أيضاً مبيّنا معنى حديث: "لاعدوى": "معناه إبطال ما كانوا يعتقدون من أن المريض يعدي الصحيح ولم ينف وجود مرض الصحيح عند حلول المريض عليه غالبا بقدر الله"(١٣٢).

وقال ابن مفلح في الصغير الذي غصبه أحد: "قلت ويحتمل أنه إن خرج به إلى أرض بها الطاعون أو وبيئة وجبت الدية وإلا فلا ولم أره"(١٣٣).

وإلى هذا التفسير في نفي العدوى ذهب الشيخ ولي الله الدهلوي(١٣٤) وقد بينه الشيخ رشيد أحمد الگنگوهي بشيء من التفصيل(١٣٥).

ويتضح بما ذكرناه من الأقوال أن إثبات انتقال بعض الأمراض من بعض إلى آخر من الناحية الطبية وحمل نفي العدوى على ما كان اعتقاده من غير السبب الطبيعي ليس غريبا على الفكر الإسلامي، وليس هذا الرأي نتيجة الانبهار بالعلم الحديث و الاكتشافات الحديثة، بل ذهب إليه عدد غير قليل من العلماء.

ويقوي هذا الرأي ما مر من موقف عمر رضي الله عنه زمن فشو الطاعون في الشام؛ فإنه كان سمع أولا بوقوع الطاعون في الشام فلم يخرج إلا بعد أن بلغه أنه قد ارتفع، لكنه لما كان قريبا من الشام بلغه أن الوباء على أشده فشاور في ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم(١٣٦)، ويدل على ذلك أيضاً ما جاء في قصة عمر أن الذين أشاروا عليه من الصحابة بالرجوع قالوا: "معك بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء"(١٣٧) ولما هم عمر بالرجوع قال: أبو عبيدة بن الجراح: "أفراراً من قدر الله؟ "فقال عمر: "لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم،

١٣١- محمد بن يوسف العبدري المواق، **التاج والإكليل لمختصر خليل**، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٣٩٨هـ ج ٤، ص ٤٣١.

١٣٢- نفس المرجع.

١٣٣- أبو عبد الله محمد بن مفلح، **الفروع**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ ج ٦، ص ٥.

١٣٤- يراجع: ولي الله المحدث الدهلوي، **حجة الله البالغة**، المكتبة السلفية، لاهور، تاريخ الطبعة ورقمها غير مذكورين، ج ٢، ص ١٩٤.

١٣٥- يراجع: رشيد أحمد الگنگوهي، **الكوكب الدري على جامع الترمذي**، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي، ١٤٠٧هـ، ج ٢، ص ١٧٧.

١٣٦- يراجع: **فتح الباري**، ج ١٠، ص ١٨٤.

١٣٧- **صحيح البخاري**، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، برقم: ٥٣٩٧.

نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل، هبطت واديا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله"(١٣٨) فهذا كله يدل على أن رجوع عمر من الشام لم يكن للحفاظ على العقيدة وحسم مادة اعتقاد العدوى كما فسّر به أصحاب القول الأول أحاديث النهي عن دخول بلد الطاعون والدنو من المريض، وإنما كان رجوعه للصيانة عن الطاعون اختياراً للسبب الظاهر، وكان يرى أنه ليس في اعتقاد إصابة المرض بدخول بلد الوباء ما ينافي العقيدة الإسلامية أو أصلا من أصول الإسلام . من هنا قال الحافظ: "فالحاصل أن عمر أراد بالرجوع ترك الإلقاء إلى التهلكة فهو كمن أراد الدخول إلى دار فرأى بها مثلا حريقا تعذر طفؤه فعدل عن دخولها لئلا يصيبه، فعدل عمر لذلك"(١٣٩).

ويدل على ذلك أيضاً ما رواه جابر بن عبد الله الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الفار من الطاعون كالفار من الزحف، والصابر فيه له أجر شهيد" أخرجه أحمد(١٤٠) قال المنذري: "رواه أحمد والبزار والطبراني وإسناد أحمد حسن"(١٤١) وقال الهيثمي: "ورجال أحمد ثقات"(١٤٢) وروي هذا المعنى عن عائشة رضي الله عنها أيضاً(١٤٣)، فتشبيه الفار من الطاعون بالفار من الزحف والصابر فيه بالصابر في الزحف يدل على أن البقاء في مكان الوباء يزيد من إمكان الإصابة بالمرض في الظاهر كما أن البقاء في الزحف يمكن أن يكون سببا ظاهراً للموت، ـ وإن كان الكل بقدر الله ـ وإلا لم يكن في الثبات و الصبر أجر.

هل كان عمر ندم على رجوعه من الشام؟:

قبل التحول إلى نقطة بحث أخرى يجدر بنا إلقاء الضوء على سؤال آخر وهو ما إذا كان سيدنا عمر قد ندم على رجوعه من الشام زمن الطاعون، كما ذكره ابن عبد البر وغيره(١٤٤) لكن حقيقة ندمه هذا يظهر بما رواه أحمد عن أبي اليمان الحكم بن نافع عن أبي بكر بن عبد الله عن راشد بن سعد عن حمزة بن

١٣٨- نفس المرجع.

١٣٩- **فتح الباري**، ج ١٠، ص ١٨٦.

١٤٠- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، ج ٣، ص ٣٦٠ برقم : ١٤٩١٨.

١٤١- عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، **الترغيب والترهيب**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ ج ٢، ص ٢٢٢.

١٤٢- **مجمع الزوائد**، ج ٢، ص ٣١٥.

١٤٣- يراجع: **الترغيب والترهيب**، ج ٢، ص ٢٢٢.

١٤٤- ابن عبد البر، **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، وزارة عموم الأوقاف، المغرب، ١٣٨٧هـ، ج٦، ص ٢١٢، **فتح الباري**، ج ١٠، ص ١٨٧.

يظهر بما رواه أحمد عن أبي اليمان الحكم بن نافع عن أبي بكر بن عبد الله عن راشد بن سعد عن حمزة بن عبد كلال في قصة رجوع عمر عن الشام، وفيه: "فانصرف راجعا إلى المدينة فعرس من ليلته تلك وأنا أقرب القوم منه، فلما انبعث انبعثت معه في أثره فسمعته يقول: رَدوني عن الشام بعد أن شارفت عليه لأن الطاعون فيه، ألا وما منصرفي عنه مؤخر في أجلي وما كان قدوميه معجلي عن أجلي، ألا ولو قد قدمت المدينة ففرغت من حاجات لا بد لي منها فيها لقد سرت حتى أدخل الشام ثم أنزل حمص؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ليبعثن الله منها يوم القيامة سبعين ألفا لا حساب ولا عذاب عليهم، مبعثهم فيما بين الزيتون وحائطها في البرث الأحمر(١٤٥) منها"(١٤٦) وذكره الهيثمي عزوا إلى أحمد وقال: "فيه أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم وهو ضعيف"(١٤٧) وأخرجه الحاكم في **المستدرك** بإسناد تابع فيه محمد بن الوليد الزبيدي أبا بكر بن عبد الله وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، لكن رده الذهبي قائلا: "بل منكر، وإسحاق هو ابن زريق كذبه محمد بن عوق الطائي، قال أبو داود: ليس بشيء، قال النسائي: ليس بثقة"(١٤٨) فدل على أن الرواية في ندم عمر ضعيفة، وهي متناقضة مع ما جاء في **صحيح البخاري** وغيره أن عبد الرحمن بن عوف كان غائبا حين شاور عمر رضي الله عنه فلما جاء أخبره بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه" وفيه: فحمد الله عمر ثم انصرف. فهذا يدل على أن عمر رضي الله عنه كان قد فرح بموافقة قول النبي صلى الله عليه وسلم إياه، فكيف يمكن أن يندم على ما وافق النص.

ولو سُلمت صحة ما نُسب إلى عمر لكان محمولا على أنه لم يكن رجوعا منه عما ذهب إليه بعد المشاورة، وإنما كان أسفا على ما فاته من ذلك الفضل الموعود على الشهادة بالطاعون، وتمنيا لحصوله، أو كان أسفا على فوت ما كان سيحصل له من البركة لو زار الشام خاصة المواضع التي ذكر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيبعث منها يوم القيامة من لاحساب عليهم ولاعذاب، فكأن عمر تمنى لو كان بلغ ذلك الموضع أو حصل له الموت هناك، وهذا كما طلب أبو هريرة رضي الله عنه عن بعض أهل البصرة

١٤٥- البرث: الأرض اللينة وجمعها براث يريد بها أرضا قريبة من حمص قتل بها جماعة من الشهداء والصالحين، أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ ج١، ص ١١٢.

١٤٦- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، برقم: ١٢٠.

١٤٧- **مجمع الزوائد**، ج ١٠، ص ٦١.

١٤٨- **مستدرك الحاكم مع تلخيص الذهبي**، ج ٣، ص ٨٩.

أن يصلى له في مسجد العشار ركعتين أو أربعا لأنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله يبعث من مسجد العشار يوم القيامة شهداء شهداء لا يقوم مع شهداء بدر غيرهم"[١٤٩]. وأما ما رواه الطحاوي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: "اللهم إن الناس يخلون ثلاث خصال وأنا أبرأ إليك منهن، زعموا أني فررت من الطاعون وأنا أبرأ إليك من ذلك ..."[١٥٠] فالفرار من الطاعون أمر والرجوع من الطريق أمر آخر، لأن الفرار مناف لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه" وأما رجوع عمر من الطريق فكان موافقا للجزء الأول من نفس الحديث.

هذا، وقد ذكر الحافظ في ندمه على الرجوع توجيها آخر، ونصه[١٥١]: "ويحتمل وهو أقوى أن يكون سبب ندمه أنه خرج لأمر مهم من أمور المسلمين فلما وصل إلى قرب البلد المقصود رجع مع أنه كان يمكنه أن يقيم بالقرب من البلد المقصود إلى أن يرتفع الطاعون فيدخل إليها ويقضي حاجة المسلمين، ويؤيد ذلك أن الطاعون ارتفع عنها عن قرب، فلعله كان بلغه ذلك فندم على رجوعه إلى المدينة لا على مطلق رجوعه فرأى أنه لو انتظر لكان أولى لما في رجوعه على العسكر الذي كان صحبته من المشقة، والخبر لم يرد بالأمر بالرجوع وإنما ورد بالنهي عن القدوم والله أعلم".

الحكمة في النهي عن دخول بلد الطاعون:

لقد ذهب العلماء في بيان الحكمة في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه" مذاهب مختلفة منها:

١- إنما نهي عنه سداً للذريعة لئلا يعتقد من يدخل إلى الأرض التي وقع بها أن لو دخلها وطُعن العدوى المنهي عنها، ومن هنا قالوا: يجوز الإقدام عليه لمن قوي توكله وصح يقينه، ويَردُ على هذا القول أن رجوع عمر رضي الله عنه لم يكن من هذا القبيل - كما مرّ - ومع هذا لما أخبره عبد الرحمن ابن عوف بهذا الحديث اعتبره موافقا لما قضى به من الرجوع، وفرح به وحمد الله عليه.

٢- نهي عن ذلك لما يخاف من السخط عند نزول البلاء به، وذهاب الصبر على ما ينزل من القضاء[١٥٢].

١٤٩- **سنن أبي داود**، كتاب الملاحم، باب في ذكر البصرة، برقم: ٤٣٠٨.

١٥٠- الطحاوي، **شرح معاني الآثار**، كتاب الكراهة، باب الرجل يكون به الداء هل يجتنب أم لا، برقم: ٧٠٧٨.

١٥١- **فتح الباري**، ج ١٠، ص ١٨٧.

١٥٢- أبو بكر محمد بن عبدالله ابن العربي، **أحكام القرآن**، دار الفكر للطباعة، لبنان، رقم الطبعة وتاريخها غير مذكورين، ج ١، ص ٣٠٥.

٣- لأن فيه ضربا من الدعوى لمقام الصبر أو التوكل فمنع ذلك حذراً من اغترار النفس ودعواها ما لا تثبت عليه عند الاختبار، ذكره الحافظ نقلا عن ابن دقيق العيد[١٥٣].

٤- إنما نهي عن دخوله لئلا يشتغل عن مهمات دينه بما يكون فيه من الكرب والخوف بما يرى من عموم الآلام وشمول الأسقام، ذكره ابن العربي[١٥٤].

٥- نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دخول بلد الطاعون لأنه يمكن أن يكون سبباً لإصابته به، ففي ذلك تعريض للنفس للخطر وإلقاء بها إلى التهلكة، وهو ممنوع شرعا، قال ابن عبد البر: "وفيه عندي والله أعلم النهي عن ركوب الغرر والمخاطرة بالنفس والمهجة لأن الأغلب في الظاهر أن الأرض الوبيئة لا يكاد يسلم صاحبها من الوباء فيها إذا نزل بها فنهوا عن هذا الظاهر إذ الآجال والآلام مستورة عنهم"[١٥٥] قال القرافي: "قال الباجي لا يقدم على الوباء لأنه تغرير بالنفس"[١٥٦] وقد وضحه القرطبي بشيء من التفصيل، وإليك نصه:

"وقصة عمر رضي الله عنه في خروجه إلى الشام مع أبي عبيدة معروفة، وفيها أنه رجع، وقال الطبري: في حديث سعد دلالة على أن على المرء توقي المكاره قبل نزولها وتجنب الأشياء المخوفة قبل هجومها وأن عليه الصبر وترك الجزع بعد نزولها؛ وذلك أنه عليه السلام نعي من لم يكن في أرض الوباء عن دخولها إذا وقع فيها ونعي من هو فيها عن الخروج منها بعد وقوعه فيها فراراً منه فكذلك الواجب أن يكون حكم كل متق من الأمور غوائلها سبيله في ذلك سبيل الطاعون، وهذا المعنى نظير قوله عليه السلام: "لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا" قلت: وهذا هو الصحيح في الباب وهو مقتضى قول الرسول عليه السلام، وعليه عمل أصحابه البررة الكرام رضي الله عنهم وقد قال عمر لأبي عبيدة محتجا عليه لما قال له أفراراً من قدر الله فقال عمر: لو غيرك

١٥٣- **فتح الباري**، ج ١٠، ص ١٩٠.

١٥٤- ابن العربي، **أحكام القرآن**، ج ١، ص ٣٠٥.

١٥٥- ابن عبد البر، **التمهيد**، ج ١٢، ص ٢٦٠.

١٥٦- شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، **الذخيرة**، دار المغرب، بيروت، ١٩٩٤م، ج ١٣، ص ٣٢٥.

قالها يا أبا عبيدة ! نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، المعنى أي لا محيص للإنسان عما قدره الله له وعليه، لكن أمرنا الله تعالى بالتحرز من المخاوف والمهلكات وباستفراغ الوسع في التوقي من المكروهات، ثم قال له أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت واديا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله عزوجل، فرجع عمر من موضعه ذلك إلى المدينة قال الكيا الطبري: ولا نعلم خلافا أن الكفار أو قطاع الطريق إذا قصدوا بلدة ضعيفة لاطاقة لأهلها بالقاصدين فلهم أن يتنحوا من بين أيديهم وإن كانت الآجال المقدرة لا تزيد ولا تنقص"(١٥٧).

وهذا القول هو الموافق لما فهمه عمر رضي الله عنه، وهو الموافق لما بيّناه في العدوى فينبغي أن يُعوَّل عليه ويجعل الأصل في حكمة هذا النهي و يقبل مما عداه ما لم يعارضه.

الحكمة في النهي عن الخروج من بلد الطاعون:

لقد ذكر العلماء في الحكمة في النهي عن دخول بلد الطاعون وجوها مختلفة، منها:

١ - ما ذكرناه(١٥٨) عن القرطبي من أنه يمكن أن يكون الإنسان قد أخذ بحظ منه لاشتراك أهل ذلك الموضع في سبب ذلك المرض العام، فلا فائدة لفراره بل يضيف إلى ما أصابه من مبادئ الوباء مشقات السفر، فتتضاعف الآلام ويكثر الضرر، وبعبارة أخرى يمكن أن يكون أصابه البكتيريا لكن لم تظهر آثاره بعد، ولم يزل هذا البكتيريا في فترة الحضانة. وقد ذكره الحافظ قائلا: "أن الطاعون في الغالب يكون عاما في البلد الذي يقع به فإذا وقع فالظاهر مداخلة سببه لمن بها فلا يفيده الفرار لأن المفسدة إذا تعينت حتى لا يقع الانفكاك عنها كان الفرار عبثا فلا يليق بالعاقل"(١٥٩). وقريب منه ما ذكره الحافظ عن بعض الأطباء أن المكان الذي يقع به الوباء تتكيف أمزجة أهله بهواء تلك البقعة وتألفها وتصير لهم كالأهوية الصحيحة لغيرهم(١٦٠)،

١٥٧- **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٣، ص ٢٣٢.

١٥٨- تحت عنوان: "الحجر الصحي بين العلم الحديث والحديث النبوي".

١٥٩- **فتح الباري**، ج ١٠، ص ١٨٩.

١٦٠- نفس المرجع.

فكأنه يصير ملقحا في ذلك المكان فلا يضره البكتيريا.

٢- إنما نهي عن الخروج منه صيانة لاعتقاده، فلعله إن خرج وفر ونجا عن المرض بقدر الله ظن أنه إنما نجا من أجل هذا الفرار والخروج، فيسوء اعتقاده(١٦١).

٣- إن في البقاء في مكان الطاعون رضا بقدر الله واستسلاما له، وفي الفرار منه توغلا في الأسباب وتعمقا في اختيارها، وذلك لا يستحسن شرعا، لأن التوغل والتعمق مذمومان في كل شيء، فكما هما مذمومان في ترك الأسباب كذلك هما مذمومان في اختيارها، خاصة إذا تضمن ذلك مفاسد سنذكرها في الأرقام الآتية.

قال الحافظ نقلا عن ابن أبي جمرة:

"في قوله فلا تقدموا عليه فيه منع معارضة متضمن الحكمة بالقدر وهو من مادة قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ وفي قوله فلا تخرجوا فراراً منه إشارة إلى الوقوف مع المقدور والرضا به قال: وأيضاً فالبلاء إذا نزل إنما يقصد به أهل البقعة لا البقعة نفسها فمن أراد الله إنزال البلاء به فهو واقع به ولا محالة فأينما توجه يدركه فأرشده الشارع إلى عدم النصب من غير أن يدفع ذلك المحذور"(١٦٢).

ثم نقل عن الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد:

"الذي يترجح عندي في الجمع بينهما أن في الإقدام عليه تعريض النفس للبلاء ولعلها لا تصبر عليه وربما كان فيه ضرب من الدعوى لمقام الصبر أو التوكل فمنع ذلك حذراً من اغترار النفس ودعواها ما لا تثبت عليه عند الاختبار، وأما الفرار فقد يكون داخلا في التوغل في الأسباب بصورة من يحاول النجاة بما قدر عليه فأمرنا الشارع بترك التكلف في الحالتين ومن هذه المادة قوله صلى الله عليه وسلم: لا تتمنوا لقاء العدو وإذا لقيتموهم فاصبروا فأمر بترك التمني لما فيه من التعرض للبلاء وخوف اغترار النفس إذ لا يؤمن غدرها عند الوقوع ثم أمرهم بالصبر عند الوقوع تسليماً لأمر الله تعالى"(١٦٣).

١٦١- القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ٣، ص ٢٣٣.

١٦٢- **فتح الباري**، ج ١٠، ص ١٨٩.

١٦٣- نفس المرجع، ج ١٠، ص ١٩٠.

٤- نهي عن ذلك رعاية لمصلحة المرضى الذين لايجدون مكانا يلجأون إليه، فلو خرج الأصحاء لم يبق هناك من يتعهدهم ويقوم عليهم، وأيضاً لو خرج بعض المرضى إلى أمكنة أخرى فلعل هناك من المرضى من لاملجأ له و لا يستطيع الظعن، ففي خروج بعضهم كسرا لقلوب هؤلاء الضعفاء وخذلانا لهم، و قد تؤثر الحالة النفسية لمكسورى القلوب هؤلاء على برئهم بالسوء.

٥- نهي عن ذلك لئلا يتحرج الناس الذين يرد عليهم هؤلاء الفارون بظن منهم أنهم جاءوهم من مكان الطاعون فليسوا خالين عن المرض، فهذا يقلقهم ويريبهم[١٦٤].

٦- ذهب بعض المعاصرين في تعليل هذا النهي مذهبا آخر وأرجعوه إلى إجراءات الحجر الصحي (quarantine) فقالوا: إنما نهي عن انتقال الناس من مكان الطاعون إلى آخر خشية فشو الوباء في الأمكنة الأخرى[١٦٥]، لكن هذا يصدق في الطاعون الرئوي والطاعون التسممي، فإنه قد ثبت أنهما ينتقلان من شخص إلى آخر، أما الطاعون الغددي ـ وهو أكثر أنواع الطاعون فشوا ـ فإنه يصيب الإنسان بواسطة البراغيث، ولم يثبت انتقاله من إنسان إلى آخرمباشرة إلا في النوعين الرئوي والتسممي[١٦٦]. ولم أجد من العلماء القدماء من ذكر هذه الحكمة ولعل ذلك لأنهم لم يكونوا يعرفون هذه التفاصيل في سبب فشو الطاعون، وإنما كانوا يعتبرون الهواء هي المسئولة عن انتشاره.

وحاصل معظم هذه الحِكم أنه ليس مقصود هذا النهي نفي علاقة السببية بين الخروج من مكان الطاعون وبين النجاة من المرض والموت، بل من الممكن أن يكون هذا الخروج سبباً ظاهراً لهذه النجاة، بأن يكون لم يُصَب بعدُ بالبكتيريا، والمكان الذي يذهب إليه يكون خاليا من هذا البكتيريا، لكن هذه السببية ضئيلة وليست قطعية، لأمور، منها أن الخارج والفار من هذا المكان يمكن أن يكون قد أخذ حظا من المرض وإن لم تظهر عليه علاماته بعدُ، فلايفيده الخروج والفرار، ومنها أن الأمور في هذا الكون وإن كانت تجري تحت نظام الأسباب لكن مدبر هذه الأسباب ومهيّئها هو الله سبحانه وتعالى، والله تعالى قادر على أن ينشئ سبب المرض في المكان الذي انتقل إليه فيصاب ـ بإذن الله تعالى ـ بالمرض

١٦٤- الكنگوهي، **الكوكب الدري**، ج ٢، ص ٢٠٥.

١٦٥- يراجع ماذكرناه تحت عنوان: "الحجر الصحي بين العلم الحديث والحديث النبوي".

١٦٦- يراجع ما ذكرناه تحت عنوان: "سبب الإصابة بالطاعون".

الذي فر منه فإنه لا رادّ لقدر الله و أمره، ولو سَلِم بالخروج من هذا المرض فإنه ليس ضمانا للسلامة من الموت، فـ: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ فتأثير الخروج من مكان الوباء في السلامة من المرض مسلَّم إلى حدٍّ ما لكن هذا التأثير ضعيف وغير قطعي. وفي جانب آخر نرى أن هذا الخروج يؤدي إلى مفاسد ويفوّت مصالح، فلو كان تأثير الخروج قويا وقطعيا لكان لغض النظر عن لزوم هذه المفاسد وفوات هذه المصالح معنى، ولو كان الفرار خاليا عن لزوم المفاسد وفوات المصالح لم تمنعه الشريعة الإسلامية على ضعف تأثيره في السلامة من المرض، فإن مما طبع عليه الإنسان أنه يتشبث في المواقف الحرجة بما يتسنى ويسنح له من الأسباب، مهما بلغته من الضآلة وضعف التأثير، كما تقول العرب: "الغريق يتعلق بحبال الهواء"، لكن ليس من الحكمة أن يتحمل الإنسان ضرراً متيقنا أو يفوِّت مصلحة متيقنة جريا وراء أوهام واحتمالات ضعيفة، ويؤيد ذلك تشبيه النبي صلى الله عليه وسلم الفرار من الطاعون بالفرار من الزحف، ولاشك أن في البقاء والثبات في المعركة من إمكانيات الهلاك والقتل ـ في الظاهرـ ما ليست في الفرار منه، فلا ينكر أن هناك شيئا من علاقة السببية بين الفرار من المعركة والسلامة من القتل، لكن هذه العلاقة ضعيفة، وليست من التيقن بمكان، فقد يفر الإنسان من سبب الموت والقتل هنا فيدركه سبب آخر هنالك، ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وفي جانب آخر نرى أن في فراره ضررا بعسكر المسلمين بتضعيف همتهم وإخماد عزيمتهم وتوهين صفوفهم وتجرئة العدو عليهم، قال الحافظ: "وقد قالوا: إن حكمة الوعيد في الفرار من الزحف لما فيه من كسر قلب من لم يفر وإدخال الرعب عليه بخذلانه"(١٦٧) فلم تبح الشريعة الإسلامية تعريض نفسه أو الآخرين للضرر باختيار سبب غير واضح جدواه. فلو واجه أحدا قطاع الطريق ـ بدل أن يكون في المعركة في الجهاد ـ وقاومهم وقتل في ذلك يكون شهيدا، لقوله عليه السلام: "من قتل دون ماله فهو شهيد"(١٦٨) لكنه لو فر منهم لم يكن عليه بأس، وإن كان الفرار سببا غير متيقن للسلامة، لأن هذا الفرار ليس فيه ضرر على أحد. فالفرارمن الزحف والفرارمن قطاع الطريق يشتركان في أن كلا منهما سبب غيرقطعي في السلامة من الموت أو القتل، لكن الأول يتضمن بعض المفاسد والإضرار بالآخرين والثاني لايؤدي إلى شيء من هذا؛ فافترقا في الحكم، والفرار من الطاعون بالفرار من المعركة أشبه منه بالفرار من قطاع الطريق ومن هنا كانا

١٦٧- **فتح الباري**، ج ١٠، ص ١٨٩.

١٦٨- **صحيح البخاري**، كتاب المظالم، باب من قتل دون ماله فهو شهيد، برقم: ٢٣٤٨.

منهيا عنهما، فالحاصل أن النهي عن الخروج من بلد الوباء ليس لنفي العلاقة بين الخروج وبين السلامة من المرض على الإطلاق بل إنما نهي عن ذلك لضئالة هذه العلاقة من ناحية، وترتب بعض المفاسد أو فوات بعض المصالح الاجتماعية المهمة من ناحية أخرى، بل إن في بيان الأجر على المكث في ذلك المكان نوع دلالة على وجود شيء من علاقة السببية بينهما، لأنه لو لم يكن للخروج مدخل في السلامة من المرض لم يكن في المكث معنى التضحية، فالوعد بالأجر إنما هو لأجل أن في البقاء في مكان الوباء تعريضا لنفسه لنوع من الخطر ابتغاء مصالح اجتماعية ألزمته الشريعة تحصيلها إيثاراً لمصالح المجتمع المتيقنة على مصلحة الفرد المظنونة، كما هو الشأن في الثبات في المعركة، من هنا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الصابر فيه له أجر شهيد".

النهي للتحريم أو للتنزيه؟

ثم هذا النهي مطلق أم خاص ببعض الصور؛ ذكر الحافظ أن هناك ثلاث صور: الأولى أن يتمحض الخروج لقصد الفرار بأن لا تكون له في الخروج حاجة أخرى ولا غرض آخر، وهذه الصورة داخلة في النهي بالاتفاق، والثانية أن يتمحض خروجه لغرض آخر غير الفرار من الطاعون وهذه الصورة لايتناولها النهي بالاتفاق، والثالثة أن تكون عرضت له حاجة فأراد الخروج إليها وانضم إلى ذلك أنه قصد الراحة من الإقامة بالبلد التي وقع بها الطاعون فهذا محل النزاع ومن جملة هذه الصورة الأخيرة أن تكون الأرض التي وقع بها وخمة والأرض التي يريد التوجه إليها صحيحة فيتوجه بهذا القصد فهذا جاء النقل فيه عن السلف مختلفا فمن منع نظر إلى صورة الفرار في الجملة ومن أجاز نظر إلى أنه مستثنى من عموم الخروج فراراً لأنه لم يتمحض للفرار وإنما هو لقصد التداوي[١٦٩].

ثم إنهم اختلفوا في الصورة الثالثة في كون النهي للتنزية أو للتحريم، ذكر الحافظ في ذلك ثلاثة مذاهب:

١- جواز الخروج، قال الحافظ: "نقل عياض وغيره جواز الخروج من الأرض التي يقع بها الطاعون عن جماعة من الصحابة منهم أبو موسى الأشعري والمغيرة بن شعبة ومن التابعين منهم الأسود بن هلال ومسروق"[١٧٠].

١٦٩- **فتح الباري**، ج ١٠، ص ١٨٨.

١٧٠- نفس المرجع.

٢- الكراهة في الخروج في هذه الصورة تنزيهية[١٧١]، قال المواق في **التاج والإكليل**: "قال ابن رشد رأى مالك أن هذا النهي ليس بنهي تحريم"[١٧٢].

٣- ذهبت جماعة إلى تحريم الخروج لظاهر الأحاديث الواردة في النهي، قال الحافظ: "وهذا هو الراجح عند الشافعية وغيرهم"[١٧٣].

والذي يظهر لهذا العبد الضعيف أن النهي عن الخروج ليس من الأمور التعبدية، وإنما نُهِي عن ذلك لاستلزامه بعض المفاسد و تفويته بعض المصالح ـ كما ذكرناه ـ فتناط درجة هذه الكراهة بدرجة هذه المفاسد المترتبة و المصالح الفائتة، فمهما عظمت المفسدة اللازمة أو المصلحة الفائتة اشتدت الكراهة في الخروج و كذلك العكس، ومن الممكن أن يخلو الخروج من هذه المفاسد فحينئذٍ يباح الخروج من غير كراهة، وعليه يحمل ما رُوي عن عمرو بن العاص أنه رأى الخروج إلى الأرض النزهة حين فشا الطاعون في الشام، فرد عليه بعض الصحابة مستندين إلى ما ورد من النهي عن الخروج فسكت عمرو في أول الأمر، لكن جاء في بعض الروايات أنه عزم في الأخير على الخروج، وخرج بالناس،فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لم ينكر عليه، ولعل ذلك لما رأى أن الخروج في تلك الحالة يتضمن المصلحة العامة و لا يستلزم المفاسد المذكورة أو أنها ضئيلة أمام المصلحة العامة، و ذلك أن الخروج كان جماعيا، فلم يكن فيه كسر قلوب المرضى الباقين في البلد، وكان الخروج إلى بقاع غير عامرة، فلم يشتمل الضرر على الذين يرِدُون عليهم، وأن المرض كان قد بلغ أشده، فكان الخروج فيه مثل الفرار من المعركة عند كثرة العدو كثرة ظاهرة، ومن هنا لم ينكرعليه عمر رضي الله تعالى عنه حين بلغه ذلك، فروى أحمد عن شهر بن حوشب الأشعري عن رابه رجل من قومه كان خلف على أمه بعد أبيه كان شهد طاعون عمواس قال: "لما اشتعل الوجع قام أبو عبيدة بن الجراح في الناس خطيبا فقال: أيها الناس إن هذا الوجع رحمة ربكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وأن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له منه حظه، قال، فطعن فمات رحمه الله، واستخلف على الناس معاذ بن جبل، فقام خطيبا بعده، فقال: أيها الناس إن هذا الوجع رحمة ربكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم، وأن معاذا يسأل الله أن يقسم لآل معاذ منه حظه، قال فطُعِن ابنه عبد الرحمن بن معاذ فمات ثم قام فدعا ربه لنفسه فطعن في راحته فلقد رأيته ينظر إليها ثم يقبل ظهر كفه

١٧١- نفس المرجع.

١٧٢- المواق العبدري، **التاج والإكليل**، ج ٤، ص ٤٣١.

١٧٣- **فتح الباري**، ١٠/ ١٨٨.

ثم يقول: ما أحب أن لي بها فيك شيئاً من الدنيا فلما مات استخلف على الناس عمرو بن العاص فقام فينا خطيبا فقال: أيها الناس إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتحيلوا منه في الجبال قال: فقال له أبو واثلة الهذلي: كذبت والله لقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت شر من حماري هذا، قال: والله ما أردّ عليك ما تقول وأيم الله لا نقيم عليه، ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا عنه ودفعه الله عنهم قال فبلغ ذلك عمر بن الخطاب من رأى عمرو فوالله ما كرهه"(١٧٤).

بل كان عمر قبل ذلك يرى ما ذهب إليه عمرو بن العاص، فكان كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه أن الأردن أرض عمقة وإن الجابية أرض نزهة فانهض بالمسلمين إلى الجابية(١٧٥)، والأغلب أن ذلك كان بعد ما رجع عمر من الشام و سمع عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه حديث النهي عن الخروج من بلد الوباء والدخول فيه، فإن رواية الطحاوي تدل على أن كتاب عمر وصل إلى أبي عبيدة رضي الله تعالى عنه قبيل وفاته، فهذا يعني أن عمر رضي الله تعالى عنه كان يرى أن النهي عن الخروج ليس على إطلاقه. والله تعالى أعلم، وصلى الله تعالى على خيرخلقه سيدنا و مولانا محمد و آله وأصحابه أجمعين.

****

١٧٤- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، برقم : ١٦٩٧.

١٧٥- الطحاوي، **شرح معاني الآثار**، كتاب الكراهة، باب الرجل يكون به الداء هل يجتنب أم لا، برقم: ٧٠٣٩.